القسم الثالث

محنة الآخر

١- الآخر بوصفه مؤسسة تربوية: الخطاب التربوي وإشكالية تشكيل السلوك.

٢- الآخر بوصفه صورة تلفزيونية: خطاب الصورة وأثره في استثارة السلوك العدواني.

٣- الآخر بوصفه فكرًا وافدًا من الفضاء: الآثار النفسية الناجمة عن التعرض للقنوات الفضائية.

أ- سيكولوجية الخطاب في القنوات الفضائية.

ب- الآثار النفسية المرتبة على الخطاب الوافد عبر القنوات الفضائية.

ج- خطاب الفضائيات وأثره في تزييف الوعي الاجتماعي.

الآخر بوصفه مؤسسة تربوية
الخطاب التربوي وإشكالية تشكيل السلوك

المقدمة

لقد شغل موضوع تشكيل السلوك Shaping اهتمام الباحثين والمتخصصين في العلوم الإنسانية المختلفة، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، فبعضهم يرى أن التشكيل السلوكي عملية لا بد منها؛ لأنها تؤدي إلى تنمية السلوك المرغوب به وإطفاء السلوك غير المرغوب فيه، ويرى آخرون أن تشكيل السلوك هو عملية في غاية الخطورة، إذ إنها تؤدي في نهاية المطاف إلى السيطرة على سلوك الإنسان، ومن ثمَّ توجيهه الوجهة المطلوبة التي تتناسب مع فلسفة شكل السلوك أو المسيطر عليه، ومهما يكن من أمر تشكيل السلوك، فإنه يظل الأداة المناسبة لتنمية الأنماط السلوكية المرغوب بها.

في الدراسة الحالية سيتم تسليط الأضواء على المؤسسة التربوية بوصفها إحدى القوى الثقافية والاجتماعية التي يتم من خلالها تشكيل السلوك، وما يهمنا من المؤسسة التربوية هو الخطاب الصادر عنها، الذي يمكن أن نطلق عليه الخطاب التربوي Educational Discourse انطلاقًا من أن الخطاب هو نوع من اللغة، ولما كان كذلك، فهو يراد به تبليغ الآخر رسالة معينة بمضمون معين، فإذا كان الخطاب النصي يراد به إيصال فكرة معينة من المرسل (الكاتب) إلى المتلقي (القارئ)، فإن الخطاب التربوي عمومًا يراد به إيصال مجموعة من الأفكار من المرسل (المؤسسة التربوية) إلى المتلقي (المتعلم)[1].

ومن هنا يصبح الخطاب التربوي عملية يراد بها تبليغ جمهور المتعلمين رسائل معينة، بقصد تشكيل اتجاهاتهم استنادًا إلى طروحات الفلسفة التربوية التي تنتهجها المؤسسة التربوية في عملية صناعة خطابها، وعلى ذلك نقول: إن الخطاب التربوي هو إرشادات ومعلومات ومعارف تصدر من المرسل بقصد

تبليغ المتلقي بتوجيهات وإرشادات معينة ومعلومات ومعارف علمية وإنسانية، يهدف من ورائها إلى تشكيل السلوك بطريقة تتناسب مع فلسفة مرسل الرسالة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل تمكن الخطاب التربوي من تشكيل السلوك؟

لأجل تكوين تصور واضح للإجابة عن هذا السؤال نقول: إن خطابنا التربوي غدا في الوقت الحاضر متهمًا بالعجز عن تشكيل سلوك المتعلمين ذلك أن ثمة إشكالية تواجهه في عملية التشكيل السلوكي، ولمعرفة إشكالية خطابنا التربوي في تشكيل السلوك فإن الفقرات الآتية ستوضح بمزيد من التفصيل تلك الإشكالية.

- تشكيل السلوك على ضوء الخطاب التربوي.
- اختبار فاعلية الخطاب التربوي في تشكيل السلوك.
- الآثار المترتبة على عجز الخطاب التربوي من تشكيل السلوك.

تشكيل السلوك على ضوء الخطاب التربوي

تواجهنا في مسألة تشكيل السلوك على ضوء الخطاب التربوي مذاهب شتى، وهذه المذاهب بالرغم من اختلافها في التأطير النظري فإنها تسعى إلى تأكيد رأي مؤدَّاه؛ أن المؤسسة التربوية تعمل على الدوام في تشكيل سلوك الفرد، بطريقة تتناسب مع أيديولوجية النظام الاجتماعي أولًا ومساعدته على التوافق مع المحيط الاجتماعي بطريقة مرضية ثانيًا، وبهدف معرفة هذه المذاهب وكيف تنظر إلى المؤسسة التربوية، نعرض أدناه منطلقاتها:

المذهب الأول: يرى في المؤسسة التربوية، أداة في التحكم بسلوك الأفراد.

المذهب الثاني: يرى في المؤسسة التربوية أداة في بلوغ الوفاق الاجتماعي.

المذهب الثالث: يرى في المؤسسة التربوية أداة لمساعدة الفرد على بلوغ التوافق في المحيط الاجتماعي.

المذهب الرابع: يرى في المؤسسة التربوية أداة لمساعدة الفرد على الاندماج مع ثقافته وإرغامه على قبول نظمها وقواعدها.

المذهب الخامس: وهو المذهب الذي يأخذ به الباحثون في ميداني علم النفس الاجتماعي وعلم النفس التكويني(٦)؛ إذ يرى هذا المذهب أن المؤسسة التربية هي إحدى عوامل التنشئة الاجتماعية، وأنها تساهم مع غيرها من عوامل التنشئة في تحويل الفرد من كائن بايولوجي لا اجتماعي إلى كائن اجتماعي أخلاقي.

وإذا نحن فصلنا القول في هذه المذاهب الخمسة، لوجدنا أن المذهب الأول يحد المؤسسة التربوية بأنها: لا تعدو أن تكون أداة طيعة بيد المجتمع لتشكيل سلوك الأفراد بطريقة تتناسب مع فلسفته وتوجهاته الحياتية؛ وطبقًا لهذا المنطلق تتحول المؤسسة التربوية إلى أداة لتكريس الهيمنة والسيطرة دون المساس بالعلاقات السائدة.

والمذهب الثاني يسبغ على المؤسسة التربوية وظيفة بلوغ الوفاق الاجتماعي، بحيث تتحول في نهاية المطاف إلى تكريس المرغوب وتجنب الممنوع إيثارًا للسلامة.

والمذهب الثالث وهو مذهب يؤكد التوافق مع المحيط الاجتماعي، بقصد تجنب المنغصات والإحساس بالارتياح، وذلك بتعليم الفرد الأساليب التي تحقق له التوافق.

والمذهب الرابع يلتمس للمؤسسة التربوية وظيفة دمج الفرد في ثقافته

السائدة بنظمها ومعاييرها وقيمها. وبذلك تتحول المؤسسة التربوية -طبقًا لهذا المذهب- مؤسسة تُرْغم الفرد على تقبل الواقع الراهن بكل ما ينطوي عليه من إيجابيات وسلبيات؛ وإذن فهي أداة لتكريس الهيمنة.

وأما المذهب الخامس والأخير فهو المذهب الذي يؤكد أن المؤسسة التربوية، إذ تساهم مع غيرها من القوى الثقافية في تنشئة الفرد اجتماعيًّا، بحيث يتحول من كائن بايولوجي لا اجتماعي إلى كائن اجتماعي أخلاقي، وعن طريقها تتم عملية استدخال معايير الثقافة السائدة.

والحقيقة إن هذا المذهب يسعى فيما يسعى إليه إلى تكريس نظام الهيمنة أيضًا أو تأكيد المجاراة للنظام الاجتماعي وحاله حال المذاهب الأخرى، التي تسعى إلى الهدف نفسه.

وبعد أن فرغنا من المذاهب التي تستند إليها المؤسسة التربوية، نجد لزامًا هنا الحديث عن مستويات السيطرة على السلوك؛ طالما أن تشكيل السلوك هو المحور الرئيسي للدراسة، ويكفينا في هذا السياق أن نشير إلى أن هناك أربعة مستويات للسيطرة على السلوك وهي:

المستوى الأول: السيطرة المادية على الحياة.

المستوى الثاني: السيطرة على السلوك من خلال المؤسسات البيروقراطية للتنظيم الاجتماعي.

المستوى الثالث: السيطرة على البيئة الطبيعية والبيئة الإنسانية، وذلك من خلال الثقافة.

المستوى الرابع: السيطرة على أفكار الأفراد، وذلك من خلال الثقافة في عصر المعلومات[٣].

إذا نحن تأملنا هذه المستويات الأربع وجدنا أن المستوى الثاني، ينسجم

تمام الانسجام مع توجهات الدراسة الحالية في النظر إلى المؤسسة التربوية بكونها واحدة من المؤسسات البيروقراطية في التنظيم الاجتماعي، ولما كانت كذلك؛ فهي بإمكانها أن تشكل السلوك استنادًا إلى توجهات الفلسفة التربوية، كما نجد أن المذهب الخامس الذي تحدثنا عنه هو المذهب الذي يتناسب مع توجهات الخطاب التربوي، وبذلك يصبح تشكيل السلوك على ضوء الخطاب التربوي مستندًا إلى المذهب الخامس وإلى المستوى الثاني من مستويات السيطرة على السلوك، ويكون ناتج الجمع بين المذهب التربوي ومستوى السيطرة على السلوك، تشكيلة معينة من السلوك، فكيف تتمكن المؤسسة التربوية من الجمع بين الاثنين في تشكيل السلوك؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تكون على النحو الآتي: تعد المؤسسة التربوية من القوى الثقافية المهمة في تشكيل سلوك الفرد، وعادة تعتمد هذه المؤسسة في التشكيل السلوكي على مصادر متعددة؛ لعل من أبرزها: المقررات الدراسية، والكادر التدريسي من المعلمين والمدرسين[1] وأساتذة الجامعات؛ بوصفهم نماذج يطلب منها أن تنمذج سلوك المتعلمين وفقًا لتوجهات المؤسسة التربوية.

فإذا أخذنا المقررات الدراسية نجد أنها لا تعدو أن تكون وسيلة اتصال بين النظام التربوي والمتعلمين؛ إذ يتم من خلالها إيصال الرسائل التي يحث عليها الخطاب التربوي، وهي في الوقت نفسه تمثل انعكاسًا لتوجهات المجتمع في الحياة.

أو بمعنى آخر: إن المجتمع يسعى باستمرار إلى إيصال فلسفته في الحياة إلى أبنائه عبر عديد من الوسائل، والكتب المدرسية هي إحدى هذه الوسائل التي يتم من خلالها توضيح فلسفته بطريقة منظمة ومنسقة مع طروحات القنوات الأخرى من التنشئة الاجتماعية، فإن كانت فلسفة المجتمع تدعو إلى

الاتجاه الفردي كما هو الحال في البلدان الرأسمالية، فقد يظهر هذا الاتجاه واضحًا وجليًّا في الكتب الدراسية، ومن ثمَّ بث الأنساق القيمية التي تعزز هذا الاتجاه.

وإن كانت الفلسفة تدعو إلى الاتجاه الجماعي كما هو الحال في البلدان التي تدين بالاشتراكية، فإن هذا الاتجاه، يبرز واضحًا في الكتب الدراسية أيضًا مع بث أنساق قيمية تعززه لدى المتعلمين، وهكذا الأمر مع الفلسفات الأخرى.

ومن ذلك نخلص إلى القول: إن الكتب الدراسية ينبغي أن تكون فاعلة ومؤثرة في المتعلمين؛ لكي تتمكن من إتمام عملية التشكيل السلوكي؛ ولأجل أن تكون فاعلة ومؤثرة فإن ثمة شروطًا معينة ينبغي توافرها، ومن بين هذه الشروط:

١ - إن المقررات الدراسية لكي تكون فاعلة في تشكيل سلوك المتعلمين؛ لا بد من أن تحدث علاقة ارتباطية بين ما يعرض من تنبيهات على السطور والاستجابة الصادرة عنهم؛ ولكي تحدث هذه العلاقة فإن ذلك يقتضي أن تستجر المنبهات المزيد من الاستجابات، عند ذاك نقول: إن العلاقة الشرطية قد حدثت، وهذا يعني أن الأفراد قد اكتسبوا الأنماط السلوكية التي يدعو إليها الخطاب التربوي.

على سبيل المثال، إذا حدث أن فسَّر المتعلمون الظواهر الطبيعية استنادًا على ما تمَّ تعلمه في الفيزياء والكيمياء؛ بعيدًا عن التفسيرات اللاعقلانية؛ عند ذاك يمكننا القول: إن ثمة تغييرًا قد حصل في اتجاهاتهم وهو ما يهدف إليه الخطاب التربوي وتكون الحالة معاكسة، أي عدم حدوث علاقة ارتباطية عندما تكون التنبيهات الموجودة غير قادرة على أن تستجر استجابات معينة؛ وفي ذلك إشارة إلى أن الخطاب التربوي لم يتمكن من إحداث تغيير في الاتجاهات لدى المتعلمين.

٢- لا بد من توخي الواقعية في تناول الموضوعات، إذ إن اللجوء إلى النموذج اليوبوتي (المثالي أو الخيالي) سينفر الأفراد منها؛ وينجم عنه عدم الحصول العلاقة الشرطية، وذلك يعود إلى أن النموذج اليوبوتي يتناقض مع معطيات الواقع اليومي، ولما كان النموذج اليوبوتي كذلك فإن الفرد سيجد نفسه يعيش في محيط غير محيطه ووقائع لم يألفها، بل إن الحديث عنها يصبح غريبًا عنه؛ لذا يصرف انتباهه عنها، مما يترتب على ذلك عدم حصول تلك العلاقة الشرطية.

٣- لكي تحصل العلاقة الشرطية لا بد للمقررات الدراسية من الابتعاد عن الخطاب السلطاني وهذا سيساعد على تقوية العلاقة حال تشكلها وعلى النقيض من ذلك أن مثل هذه العلاقة ستنطفئ عندما تتناول هذه المقررات نشاطات السلطان.

٤- من المفيد الإشارة إلى أن المقررات الدراسية لا بد لها من مراعاة البساطة، والوضوح، والدقة في عرض الموضوعات؛ ومن ثمَّ تسلسلها من الناحية المنطقية، والابتعاد عن الحشو والإطالة، كما ينبغي لها أن تبتعد عن الأسلوب الخطابي، فقد ينقلب وبالًا عليها، فبدلًا من أن تتغير اتجاهات المتعلمين بما يتناسب وتوجهات الخطاب التربوي، وربما يحدث العكس، فقد تتشكل اتجاهات سلبية نحو هذه المقررات مما يولد نفورًا منها وسخرية من موضوعاتها.

٥- من المفضل أن يكون ثمة توازن في بث نماذج البشر في المقررات الدراسية، وهذا معناه، أن لا يكون ثمة نموذج معين من البشر يشيع في مرحلة دراسية معينة وتخلو المراحل الدراسية الأخرى منه، أو أن يشيع في كل المقررات الدراسية للمراحل كافة، وضعف تأكيد النماذج الأخرى من البشر.

وما نريد قوله هنا: إن التوازن في بث نماذج البشر المختلفة عبر المراحل الدراسية المختلفة أمر لا مندوحة منه؛ فذلك يساعد على إشاعة الاتجاهات التي يدعو إليها الخطاب التربوي.

إن الكادر التدريسي يعد من المصادر التي تسهم في تشكيل سلوك المتعلمين، أو بمعنى آخر نمذجة Modeling السلوك بمقتضى القواعد والأنظمة التي يؤكدها الخطاب التربوي، وبذلك تكون هناك وظيفتان للكادر التدريسي.

الوظيفة الأولى: تتمثل بنمذجة السلوك.

والوظيفة الثانية: إن الكادر التدريسي يعد بمثابة قناة اتصال بين المؤسسة التربوية والمتعلمين.

فيما يخص الوظيفة الأولى: إن الكادر التدريسي يسعى إلى نمذجة سلوك المتعلمين بأساليب شتى، منها على سبيل المثال: استخدام أسلوب الثواب للأنماط السلوكية المقبولة وحسن استكشاف البيئة على ضوء القواعد التي درسوها وإيجاد الحلول المناسبة لبعض المشكلات وإبداء كفاءة في المناقشة والإقناع على ضوء استخدام الأدلة والبيانات ثم إظهار كفاءة عن طريق التعلم بالتجريب، فهذه الأساليب وغيرها تمكن الكادر التدريسي من نمذجة سلوك المتعلمين.

أما الوظيفة الثانية للكادر التدريسي: فهي أن تكون بمثابة قناة اتصال بين الخطاب التربوي والمتعلمين، وقناة الاتصال التي نعني بها هنا، هو أن الكادر التدريسي تقع على عاتقه مهمة نقل فلسفة المؤسسة التربوية بطريقة متسقة ومنظمة إلى المتعلمين سواء عن طريق المقررات الدراسية أو عن طريق التوعية العامة بالأهداف التي تنشدها فلسفة هذه المؤسسة.

اختبار فعالية الخطاب التربوي
في تشكيل السلوك

لقد بات واضحًا أن الخطاب التربوي يستند في تشكيل سلوك المتعلمين إلى توجهات الفلسفة التربوية وما يهمنا هنا هو اختبار فاعلية خطابنا التربوي في عملية التشكيل السلوكي وبقصد اختبار فاعلية هذا الخطاب لا بد لنا من أن نعتمد على مؤشرات معينة تشير صراحة إلى نواحي التأثير أو القصور في الخطاب ونجد في المؤشرات الآتية خير ما يعيننا على اختبار كفاءة خطابنا التربوي في تشكيل السلوك.

١- بيان دور الخطاب التربوي في تشكيل اتجاهات المتعلمين.

٢- بيان دور الخطاب التربوي في تشكيل قيم تتناسب مع طبيعة الثقافة السائدة.

٣- بيان دور الخطاب التربوي في تنمية المهارات العلمية المطلوبة.

٤- بيان دور الخطاب التربوي في تنمية أساليب معينة من التفكير[٥].

٥- بيان دور الخطاب التربوي في تنمية حصيلة معلوماتية عن العالم من حولنا.

٦- بيان دور الخطاب التربوي في تهيئة الظروف الملائمة للإنتاج العلمي.

وطبقًا لهذه المؤشرات نجد أن خطابنا التربوي لما يزل غير فاعل في تشكيل السلوك وذلك للأسباب الآتية:

١- إن خطابنا التربوي لم ينجح بعد في تشكيل اتجاهات تنطوي على العقلانية والمنطق بدليل أن المتعلم ما يزال يحمل الكثير من الأفكار اللاعقلانية والغيبية فيما يتصل بتفسير الظاهرة الاجتماعية، والطبيعية، والحياتية التي يتعرض لها ولم يعد يفسرها طبقًا لقواعد المنطق العلمي الذي تعلمه في وقت سابق، وهذا ما يسمى (بانتقال أثر التدريب) فلكي يكون الخطاب التربوي فاعلًا ينبغي أن تتم في الحال عملية انتقال أثر التدريب وإلا فإن

ذلك يؤشر بتدني مستوى كفاءة الخطاب في تشكيل السلوك.

٢- ولأن خطابنا التربوي يستند إلى التلقين فهو لم يساهم في تنمية نسق قيمي يتناسب مع الأهداف التربوية المعلنة التي تتلخص بإعداد الأفراد المتعلمين أن يكونوا في المستقبل المنظور مواطنين قادرين على المشاركة في بناء المجتمع فضلًا عن التمتع بالمسئولية الاجتماعية والوطنية وذلك يرجع أساسًا إلى أن خطابنا التربوي ينحو المنحى اليوبوتي في معالجة القضايا المجتمعية، فبينما يدعو إلى مجتمع نموذجي -مجتمع المدينة الفاضلة- الذي تذوب فيه الفوارق بين الناس ويسود القانون والنظام والعدالة وإذا بالأفراد يشاهدون بأمِّ أعينهم معطيات الواقع اليومي التي تتناقض تمامًا مع بيانات الخطاب التربوي الذي يعني صرف الانتباه عن سماع رسائله ومن ثمَّ عدم التأثر بها ومن المتوقع في حال استمرار الخطاب التربوي بعدم مراعاة الاتساق بين معطيات الواقع اليومي والأهداف التربوية اليوبوتية المحددة مسبقًا في الخطاب السياسي أن لا يؤدي إلى تنمية النسق القيمي الذي ينسجم مع توجهات الثقافة السائدة.

٣- ولما كان خطابنا التربوي تلقينيًّا أي خطابًا يخلو من الإبداع و الأصالة فمن الطبيعي أن لا يؤدي إلى تنمية مهارات المتعلمين على المستوى المعرفي والعلمي ذلك أن خطابنا التربوي يعاني من غياب التطابق والانسجام بين التنظير والتطبيق ويعد كل منهما غريبًا عن الآخر وليس بينهما ارتباط.

٤- إن استلام المتعلم لمعلوماته ومعارفه بطريقة التلقين والحفظ سيؤدي إلى تعليمه إنتاج أفكار قليلة عن موضوع ما في فترة زمنية ثابتة، وعلى خلاف ذلك عند استخدام طريقة الحوار والمناقشة والنقد، وسيؤدي ذلك إنتاج أفكار كثيرة عن موضوع ما في فترة زمنية ثابتة وعلى ذلك فإن خطابنا التربوي المغرق بالتلقينية أثبتت الوقائع عجزه عن تنمية أساليب من التفكير من قبيل: التحليل والاستنتاج والنقد.

٥- لقد غدا المتعلمون في بلادنا العربية على العموم معتمدين على التلقين في

تزويدهم بالمعلومات عن العالم من حولهم؛ وبطبيعة الحال إن الثورة المعلوماتية التي نشهدها الآن ونتلمس آثارها لا يمكن بأي حال من الأحوال الإلمام بمعارفها بالأسلوب المدرسي إن صحَّ التعبير الذي تتبعه المؤسسة التربوية، وهو عادة ما يرتكز على الكتاب المقرر بعد إقرار مفرداته ثم طباعته، وبذلك فإن المعلومة الجديدة التي يراد توصيلها إلى المتعلمين يكون قد مضى عليها زمن وربما طورت أو استعيض عنها بمعلومة أخرى، وذلك ما يعني أن عالم المعلومات في حالة تكون وصيرورة على الدوام ولما كان عالم المعلومات كذلك؛ فإن الأمر يقتضي المواكبة المستمرة للمعارف والمعلومات من مصادر مختلفة.

٦- يعد الإنتاج العلمي أحد المؤشرات الدالة على كفاءة المؤسسة التربوية ويمكن الاعتماد هنا على النشر للدراسات العلمية والمقالات والكتب فضلًا عن براءات الاختراع.

إذا نحن عدنا إلى البيئة العلمية التي يعيش بين ظهرانيها الباحث العلمي في البلاد العربية؛ لوجدنا أنها غير مشجعة على الإنتاج العلمي بسبب غياب مستلزمات الإنتاج العلمي التي يمكن حصرها في الآتي:

١- قلة المختبرات العلمية ورداءة نوعيتها.
٢- قلة المواد الخام لإجراء التجارب وأحيانًا عدم تيسرها.
٣- قلة مستلزمات الطباعة وصعوبة توزيع استمارات البحوث.
٤- قلة الكادر الفني الذي يعتمد عليه في متابعة الدراسات والتجارب وإجرائها في وقتها المحدد ومن ثمَّ تفريغ البيانات ومعالجتها.
٥- إن المكتبات لم ترفد على الدوام بأحدث المطبوعات من الكتب والمجلات العلمية.
٦- صعوبة الاتصال العلمي مع المؤسسات العلمية في أنحاء متفرقة من العالم.

٧- صعوبة معالجة البيانات وذلك لقلة أجهزة الحاسوب وإن تيسرت مثل هذه الأجهزة فمن الصعوبة بمكان إيجاد الكادر الفني القادر على التعامل مع كل البرامج الملائمة للدراسات العلمية والإنسانية؛ مما يرغم بعض الباحثين إلى معالجة البيانات بطريقة يدوية.

واستنادًا إلى هذه المعوقات فقد أصبحت الإنتاجية العلمية في المجتمع العربي متدنية قياسًا بإنتاجية الغير فلقد بلغت أعداد الكتب المنشورة عام ١٩٨٨ لكل مليون نسمة (٣٢) كتابًا فيما بلغت في البلدان الأكثر فقرًا (٥٧) كتابًا لكل مليون نسمة وبلغت أعدادها على المستوى العالمي (١٦٤) كتابًا[٦]. ولعل الأمر نفسه ينطبق على نشر الدراسات والمقالات العلمية ذلك أن حجمها لا يقل تدنيًا عن حجم الكتب المنشورة وهذا يشير إلى غياب البيئة العلمية التي تشجع الباحثين على التأليف والبحث والاستقصاء والمراجعة والتأمل.

واضح أن خطابنا التربوي غير فاعل في تشكيل السلوك طبقًا للمؤشرات التي فصلنا القول فيها، وإذا نحن بحثنا عن أسباب ذلك لوجدنا أن ثمة معوقات ترافق الخطاب التربوي وتجعل من رسائله الاتصالية رسائل غير مؤثرة في التشكيل السلوكي. ولعل من أبرزها:

أولًا: معوقات تتعلق بالمعلم.

ثانيًا: معوقات تتعلق بالمتعلم.

ثالثًا: معوقات تتعلق بالمنهج سالدراسي.

رابعًا: غياب الفلسفة التربوية الواضحة.

والآن سنفصل القول في هذه المعوقات كلًا على حدة.

أولًا: معوقات تتعلق بالمعلم

لا نأتي بجديد إذا قلنا: إن المعلم بلغة علم النفس التربوي (معلم، مدرس، أستاذ جامعة) هو محور الخطاب التربوي أو هو بمثابة العُكَّاز الذي يتعكَّز عليه الخطاب التربوي ولما كان المعلم كذلك ينبغي أن يراعي الدور الكبير الذي يضطلع به في المؤسسة التربوية، ولو ألقينا نظرة على أحوال المعلم في البلاد العربية لوجدنا أنه غير فاعل في الخطاب التربوي، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى عديد من الأسباب من أهمها:

أ- أن عملية إعداد المعلم لم تكن بالمستوى المطلوب ذلك أن المعلم العربي لم يُعدَّ إعدادًا علميًّا لمهنة التدريس؛ بسب الافتقار إلى خطط وبرامج واضحة في عملية الإعداد، وعدم الاستفادة من التجارب العلمية التي سبقتنا في هذا الميدان مما أدى إلى ضياع الكثير من فرص التطور أمام الأجيال.

ب- بسبب ضآلة دخل المعلم وعدم كفايته لسد مقتضيات المعيشة اليومية، فقد أصبح يعيش حالة من الفقر، والعوز، والبؤس[٧]؛ ولمواجهة النقص الحاصل في دخله لجأ مضطرًا في بعض البلدان العربية إلى البحث عن عمل خارج أوقات الدوام الرسمي وأحيانًا التغيب عن الدوام لبضعة ساعات، أو لأيام معينة من الأسبوع للإيفاء بالتزاماته في عمله الإضافي؛ ولقد ترتب على ذلك ضعف مهارته التدريسية؛ ومن المتوقع -استنادًا إلى هذه المعطيات- أن ينخفض إنجازه الوظيفي ولم يكن الأستاذ الجامعي بأحسن حالًا من زميله المعلم أو المدرس؛ بل هو الآخر يعاني من ضنك الحال وتدهور أحواله المعيشية ولا سيما في بعض الجامعات العربية، فلقد وصل الحال ببعضهم إلى ترك الجامعة بعد أن وجد نفسه غير قادر على أن يفي

بالتزاماته العلمية والخلقية إذ تركها غير مأسوف عليها، وبعضهم ترك البلاد مهاجرًا إلى مكان آخر بحثًا عن المكانة، والمهابة، وثالث فضَّل البقاء راضيًا بقليله مغتربًا عن المحيط الجامعي.

فأي إنجاز نتوقعه من فئة تعاني الاغتراب في كل لحظة؟ وهل بإمكانها الإسهام بتشكيل سلوك المتعلمين؟!

لقد بات بحكم المؤكَّد أن الرسالة الإقناعية لكي تُحدث أثرًا في سلوك المتعلم ينبغي أن يكون المعلم مهيئًا لإيصالها وإلا سيكون حالها حال الرسائل الأخرى التي يتعرض لها المتعلم يوميًّا؛ ولكنها لم تحدث أثرًا معينًا في سلوكه.

ج- ولكي يكون المعلم عنصرًا فاعلًا في الخطاب التربوي ينبغي أن تكون ساعاته الدراسية قليلة بمعنى أن لا تتحول إلى عبء Load يثقل كاهله؛ لأن العبء التدريسي سيؤدي إلى التعب والإنهاك ومن ثمَّ فقدان القدرة على إيصال المعرفة إلى المتعلمين؛ وإن استمرار العبء التدريسي ربما يفضي إلى هجر المعرفة وعدم متابعتها من مصادرها المختلفة؛ وبالفعل فلقد تحولت كثرة الساعات التدريسية إلى أعباء وظيفية شغلت المعلم عن متابعة المعرفة وتحصيلها، والأهم من ذلك أن المعلومات التي أخذت تستحدث في الميدان التربوي لم يعد يكترث لها.

ولعل الأمر نفسه ينطبق على الجامعة أيضًا فلقد أصبح الأستاذ محملًا بعدد كبير من الساعات التدريسية؛ وذلك لمواجهة مقتضيات المعيشة؛ ولتحسين دخله جراء الساعات التي تزيد عن النصاب المقرر.

ويفترض أن مثل هذه الساعات الإضافية التي تصرف في التدريس يمكن أن تصرف لأغراض المطالعة، والبحث، والتقصي بقصد مجاراة التطورات المعرفية في حقل الاختصاص فضلًا عن توسيع دائرة معارفه.

ويبدو أن الكادر التدريسي في بعض جامعاتنا العربية قد عزف عن تحصيل المعرفة ومتابعة مصادرها بسبب الانشغال بهموم المعيشة؛ مما يعني أن العزوف عن متابعة التطورات المعرفية سيستمر طالما أن الأوضاع المعيشية لهذا الكادر آخذة بالتدهور.

د- لعل من مقومات نجاح الخطاب التربوي أن يتمتع المعلم بقدر من الحرية الأكاديمية Academic Freedom التي يتحرر فيها من رقابة الآخر على أفكاره التي يذيعها بين تلاميذه وطلبته، أو التي ينشرها في مقالاته ودراساته ومؤلفاته كما أن سيادة الحرية الأكاديمية في الوسط الأكاديمي تشعره بالأمان. والأهم من ذلك أن الحرية الأكاديمية تتيح للمعلم الإبداع في علمه الأكاديمي وعلى خلاف ذلك تتحول العملية التربوية إلى عطالة، فضلًا عن غياب الإبداع وعلى ذلك فإن الحرية الأكاديمية مطلب ضروري في الخطاب التربوي.

ثانيًا: معوقات تتعلق بالمتعلم

لقد أصبح واضحًا أن المتعلم (تلميذ طالب) هو الطرف المعني بالعملية التربوية كلِّها ذلك أن الخطاب التربوي يهدف فيما يهدف إليه في مجمل العمليات الحادثة فيه أن يشكل سلوك المتعلم بطريقة تنسجم مع توجيهات الفلسفة التربوية؛ ولكي يتمكن من ذلك ينبغي أن يكون المتعلم نفسُه مهيَّئًا لعملية التعلم وهذا يقتضي بطبيعة الحال العمل على تهيئة الظروف المناسبة للتعلم، أي: الظروف التي تشجع المتعلم على بذل المزيد من الجهود لتحصيل المعرفة؛ فلقد وجد أن تيسر الظروف المشجعة على التعلم تؤدي إلى المثابرة والرغبة في التعلم، وعلى خلاف ذلك إن إشاعة الظروف المثبطة عن التعلم تؤدي إلى النفور من المعرفة مما يترتب على ذلك انخفاض مستوى الإنجاز الدراسي وبالمحصلة النهائية الحصول على مخرجات تربوية تتسم بالكفاءة المتدنية.

وهنا نصل مسألة في غاية الأهمية وهي أن تيسير الظروف المشجعة على التعلم سيتيح للمؤسسة التربوية فرصة إيصال خطابها إلى المتعلم، والعكس صحيح في حال غياب هذه الظروف فمن الصعوبة بمكان إيصال الخطاب التربوي، والسؤال الذي نثيره هنا هو: كيف تصبح الظروف غير المشجعة على التعلم عائقًا يحول دون تأثر المتعلم بالخطاب التربوي؟

هذا السؤال يدعونا إلى البحث عن الأسباب التي تجعل المتعلم غير مكترث برسائل الخطاب التربوي لعل من أهمها:

أ- إن المتعلمين على العموم في كل المراحل الدراسية ابتداءً من المدرسة الابتدائية وحتى الجامعة يعانون من غياب العدل في توزيع الفرص التربوية، وهذا يعني أن كلَّ متعلم في كل مكان ما من المجتمع لا تتيسر له فرص التعلم بالجودة نفسها[٨] التي يتعلم بها أقران له في مكان آخر من المجتمع نفسه، ولعل الشاهد على غياب العدل في توزيع الفرص التربوية على المتعلمين جميعًا هو التفاوت في توزيع المعلمين أو المدرسين على مدارس الأحياء السكنية داخل المدينة العربية فالأحياء السكنية الراقية تستقبل كوادر تدريسية بدرجة عالية من الكفاءة فضلًا عن توافر مستلزمات التعليم بدرجة كافية، في حين تفتقر الأحياء السكنية الشعبية إلى مثل هذه الكوادر التدريسية إلى جانب شحة مستلزمات التعليم .

وإذا انتقلنا إلى الأرياف نجد وضعًا تربويًّا سيئًا أو يكاد أن يكون كذلك فالمدارس هناك تعاني من نقص حاد في الكوادر التدريسية وفي حال تيسرها فيكون في أغلب الأحيان من الكوادر التدريسية المستجدة التي لا تمتلك خبرات تربوية في الميدان التربوي أو تكون من العناصر التي لديها مشكلات إداراتها المدرسية.

ولعل الأمر نفسه ينطبق على الجامعات المحلية فالفرص التربوية التي يتمتع بها طالب الجامعة في العاصمة تكاد تكون غيرها في جامعات الأقاليم ذلك، أن الجامعات المتمركزة في العاصمة تحظى بإمكانات علمية وتقنيات تربوية لا تحظى بها الجامعات الإقليمية.

والحقيقة أن التفاوت في جودة التعليم سيؤدي إلى تفاوت في الخبرة التربوية ومن ثمَّ سيؤدي إلى الحصول على مخرجات تربوية متدنية من حيث الكفاءة.

ب- ولضمان وصول الخطاب التربوي دون معوقات ينبغي مراعاة حصة المعلم الواحد من المتعلمين، فلقد وجد أن اكتظاظ القاعات الدراسية بأكثر من طاقاتها الاستيعابية سيؤدي إلى نفور المعلم فضلًا عن إحساسه بالإرهاق والتعب جراء الاكتظاظ، ثم إن الاكتظاظ على مدار السنة الدراسية سوف لا يمكن المعلم من متابعة أحوال المتعلمين بصورة تفصيلية وإذ نحن تحرينا عن حصة المعلم الواحد من المتعلمين في البلاد العربية سنجد أن ثمة تفاوتًا في هذه الحصة فلقد كشفت الإحصاءات التربوية فيما كشفت أن حصة المعلم الواحد في عُمان قد بلغت (٤٢) متعلمًا وفي ليبيا ولبنان بلغت حصته (١٧) متعلمًا و(١٦) متعلمًا في السعودية[٩] و(٤٥) متعلمًا في مصر[١٠] و(٦٠) متعلمًا في اليمن[١١].

ومما له دلالة في هذا الصدد أن المدارس الابتدائية في بعض مناطق اليمن قد اكتظت بالمتعلمين إلى حد يصعب معه متابعة العملية التربوية فلقد وصل الازدحام في القاعات الدراسية في بغض المدارس إلى (١٥٠) متعلمًا[١٢].

وإذا نحن عدنا إلى حصة المعلم الواحد من المتعلمين في البلدان النامية لوجدنا أن حصته قد بلغت (٣٣) متعلمًا[١٤] بينما يشير المعيار العالمي لجودة

التعليم (٢٠) متعلمًا[١٤] واضح أن الاكتظاظ يعوق عملية التعلم ويحول دون تيسيرها وهو ما تعاني منه المؤسسات التربوية في أغلب البلدان العربية.

ج- إن تدهور الأوضاع المعيشية للمتعلم تجعله بمرور الوقت نافرًا من الرسائل التي تتدفق عليه من المؤسسة التربوية إذ يصبح خطابها غير جاذب للانتباه وعديم التأثير في المتعلم وقد يترتب على تدهور الظروف المعيشية للمتعلم بعض الآثار النفسية ومن أبرزها:

١- ضعف الإنجاز الدراسي

إن ثمة علاقة بين المستوى الاجتماعي- الاقتصادي للمتعلم والإنجاز الدراسي إذ تنطلق هذه العلاقة من المقولة القائلة: إن ارتفاع المستوى الاجتماعي-الاقتصادي للمتعلم يؤدي إلى زيادة الإنجاز الدراسي والعكس صحيح إن انخفاض المستوى الاجتماعي- الاقتصادي للمتعلم يؤدي إلى انخفاض إنجازه الدراسي.

ويمكن تفسير ذلك بأن ظروف اليسر الاقتصادي لأسرة المتعلم تتيح له فرصة المتابعة للمعرفة، فضلًا عن التشجيع على مواصلة الدراسة وتهيئة سبل التعلم مما يفضي إلى تحبيب المعرفة لديه والسعي لتحصيلها وبالمحصلة النهائية إن المتعلم سيزداد إنجازه الدراسي عند التقدم بالمراحل الدراسية بيد أن الأمر جد مختلف مع المتعلم الذي تعيش أسرته في حالة من العسر الاقتصادي، إذ لا تشجعه على طلب المعرفة فضلًا عن أنها لا تهيئ له السبل المناسبة للتعلم مما يؤدي إلى تدني إنجازه الدراسي[١٥].

إذا نحن عقدنا مقارنة في الإنجاز الدراسي بين المتعلمين من المستويات الاجتماعية، والاقتصادية المختلفة لوجدنا أن أطفال المستوى الاجتماعي- الاقتصادي المتدني يبدءون من نقطة بداية متدنية[١٦] والسبب يعود كما أشرنا

إلى أن هؤلاء الأطفال يعيشون في مناخ أسري لا يشجع على الثقافة والمعرفة؛ مما يجعله نافرًا منها وغير مشجع عليها بدليل أن الأطفال الذين ينتمون إلى المستوى الاجتماعي - الاقتصادي المتدني يعدون متأخرين دراسيًّا بسنة واحدة عن أقرانهم في المستويات الاجتماعية- الاقتصادية الأخرى عندما يصلون إلى الصف الثالث الابتدائي[١٧] ثم يبدأ التأخر الدراسي بالزيادة عند التقدم بالمراحل الدراسية إذ يصل هذا التأخر في الصف السادس الابتدائي إلى سنتين دراسيتين [١٨] وعند انتهاء مرحلة الدراسة المتوسطة أو الإعدادية يزداد التأخر الدراسي بمقدار ثلاث سنوات[١٩] وهذا معناه أن المناخ الثقافي الذي يعيش بين ظهرانيه الطفل من ذوي المستوى الاجتماعي- الاقتصادي المتدني فقير في أدواته الثقافية؛ إذ لا يشجعه على الاستكشاف ولا ينمي لديه المهارات المعرفية التي تمكنه من معالجة الظواهر والأحداث من حوله، مما يجعله معتمدًا على المؤسسة التربوية وحدها دون أن يحصل منها على المزيد من المنبهات التي تثري معارفه ومهاراته. ثم إن المؤسسة التربوية التي يعتمد عليها اعتمادًا كليًّا هي الأخرى تعاني من عديد من المعوقات التي تكون بالتبعية غير فاعلة في تنشيط المتعلم وحثه على طلب المعرفة.

٢- تسرب المتعلم من الدراسة

يعد التسرب إحدى المشكلات التي تعاني منها المؤسسة التربوية في أغلب البلاد العربية ولا سيما بين الأطفال من المستوى الاجتماعي-الاقتصادي المتدني؛ ذلك أن هؤلاء يتركون الدراسة مبكرًا إذ ينخرطون في عالم العمل وذلك لمساعدة الأسرة في سد احتياجاتها المعيشية.

نشير في هذا السياق إلى أن الدراسات التي أجريت على المتسربين من الدارسة كشفت أن الغالبية منهم يغدون من بيئات فقيرة أو هي تعاني من فقر مدقع، فلقد وجد أن (٣٧.٥٪) من هؤلاء المتسربين على مستوى البلاد العربية كانوا ينتمون إلى المستوى الاجتماعي الاقتصادي المتوسط بينما تنتمي البقية

الباقية إلى المستوى الاجتماعي- الاقتصادي المتدني[٢٠]. ولقد توصلت أيضًا المسوحات التي أجريت في البلاد العربية إلى نتيجة مماثلة إذ وجدت أن أغلب الأطفال الذين لم يكملوا تعليمهم الدراسي كانوا من أسر تنتمي إلى المستوى المتدني[٢١].

واضح أن التسرب أخذ يشكل نسبة كبيرة بين الأطفال من ذوي المستوى الاجتماعي- الاقتصادي المتدني؛ علمًا بأن أفراد هذا المستوى يشكلون نسبة قد تصل إلى (٥٠٪) أو تكاد وإذا أضفنا أعداد المتسربين من ذوي المستوى المتدني إلى أعدادهم من المستويات الأخرى فإن النسبة ستكون كبيرة.

نخلص إلى القول: إن التسرب من الدارسة سيظل واحدًا من المؤشرات التي تختبر كفاءة الخطاب التربوي في التأثير في أفراده من المتعلمين.

٣- قلة المحصول اللفظي

تعد اللغة القناة الاتصالية التي يتم من خلالها التفاهم بين بني البشر؛ ولكي يكون التفاهم سليمًا لا بد من إجادة استعمال اللغة بصورة سليمة؛ لأن سوء الاستعمال يؤدي إلى تشوش القناة الاتصالية وعدم وضوح الرسالة مما يفضي إلى مرور هذه الرسالة دون أن تحقق أهدافها الإقناعية.

وتأسيسًا على ما سبق يجد الخطاب التربوي بعض الصعوبات اللغوية في مسألة إيصال رسائله الاتصالية، وذلك يعود إلى تباين المحصول اللفظي لدى المتعلمين عمومًا وهذا التباين ناجم بطبيعية الحال عن الانحدار من بيئات متباينة اجتماعيًّا واقتصاديًّا وبالطبع إن هذا التباين في المستوى الاجتماعي - الاقتصادي يؤدي على التباين في المحصول اللفظي انطلاقًا من القول القائل: إن اللغة هي خير معبر عن ارتفاع أو انخفاض المستوى الثقافي والاجتماعي الذي ينتمي إليه المتعلم[٢٢] ذلك أن الأطفال الذين ينحدرون من المستوى

الاجتماعي- الاقتصادي المتوسط أو العالي وهم في واقع الأمر أقدر من أقرانهم الذين هم من المستوى المتدني في التعبير عن أنفسهم[٢٣] وأنهم يتحدثون بلغة تنطوي على محصول لفظي أكثر من المحصول اللفظي لدى أقرانهم من ذوي المستوى المتدني، كما أن لهم قدرة واضحة في وصف العالم من حولهم فضلًا عن أن محصولهم اللفظي يشتمل على ألفاظ في غاية الأدب واللياقة وأنه يخلو من التهديد أو الوعيد، وإذا نحن تفحصنا اللغة السائدة بين أطفال المستوى الاجتماعي- الاقتصادي المتدني ولوجدنا أن ثمة فقرًا واضحًا في اللغة المستعملة لديهم[٢٤] ذلك أنهم غير قادرين على التعبير عن أنفسهم أو وصف العالم من حولهم ومرد ذلك إلى أن محصولهم اللفظي أقل قياسًا بمحصول أقرانهم من المستويات الأخرى كما أن المناخ الأسري الذي يعيشون بين ظهرانيه مدقع ثقافيًا إذ أن الغالبية منهم لم تألف الكتاب أو المجلة أو استكشاف البيئة عن طريق الأدوات الدالة على الاستكشاف فضلًا عن ندرة الحوار الحادث بين الوالدين، وإن كان هناك حوارٌ بين الوالدين فهو حوار ينطوي على الإذعان، والطاعة، والأمر، وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الحوار لا يساهم في تنمية المحصول اللفظي.

وإذن فإن الخطاب التربوي لكي يكون فعالًا في تشكيل السلوك؛ ينبغي أن يركز على المحصول اللفظي لدى المعلمين؛ ذلك أن زيادة المحصول اللفظي مع مراعاة نوعيته يُعَدُّ من العوامل المهمة في التأثير على أفكار المتعلمين.

ثالثًا: معوقات تتعلق بالمنهج الدراسي

يعد المنهج الدراسي وسيلة الاتصال التي تتوسط بين المرسل (الخطاب التربوي) والمستقبِل (المتعلم) ولأجل أن تكون هذه الوسيلة فاعلة في الخطاب التربوي ينبغي مراعاة الشروط الآتية:

١- من الضروري أن يشتمل المنهج الدراسي على الأهداف التربوية المتمثلة في الأهداف المصرفية والوجدانية والنفسية -الحركية.

٢- من الضروري مراعاة المراحل الارتقائية التي يمر بها المتعلم في كلِّ مرحلة دراسية عند إعداد المنهج الدراسي[٢٥].

٣- لا بد من مراعاة التطورات المعرفية ومحاولة تضمينها في المنهج الدراسي.

إن هذه الشروط الثلاثة مجتمعة هي التي تبلغ بالمنهج الدراسي إلى مستوى الكفاءة أو الفعالية.

إذا نحن تفحصنا هذه الشروط مجتمعة في مناهجنا الدراسية؛ لوجدنا أن ثمة خللًا أو قصورًا في الأخذ بها.

فالشرط الأول: لا يزال يحظى باجتهاد لجان التأليف، وأن ثمة عدم اتفاق على الأهداف التربوية الواجب الأخذ بها، فهذه الأهداف في حقيقة الأمر إن أخذ بها مجتمعة فقد تؤدي إلى إحداث بعض التأثيرات على مستوى شخصية المتعلم؛ بيد أن غياب التنسيق والتنظيم في توزيعها بالتدرج قد أضاع على المتعلم فرصة التأثر بها.

وأما الشرط الثاني: فيكاد يكون متحققًا وأحيانًا أن محتوى المنهج قد يكون أقل من خصائص المرحلة الارتقائية التي يمر بها المتعلم، ومع ذلك نقول: إنه ليس هناك مشكلة تتعلق بمسألة انسجام المنهج الدراسي مع المرحلة الارتقائية التي يمر بها المتعلم.

وأما الشرط الثالث: وهو مراعاة التطورات المعرفية ومدى تضمين المناهج الدراسية لها، فهي الآن الشغل الشاغل لكل من المهتمين والباحثين في قضايا الخطاب التربوي إذ لم يزل المنهج الدراسي عاجزًا عن مجاراة التطورات الحادثة في عالمنا هذا ولكي تضمن المعلومة التي استحدثت في عالم المعلومات لا بد من تأليف لجنة تنظر في الأمر، ثم تشكل لجنة أخرى تنظر في: أي المعلومات الواجب تضمينها في المنهج الدراسي؟ وبذلك فإن المعلومة التي أريد لها النور

في المنهج الدراسي قد أصبحت قديمة ومن ثمَّ تغدو شيئًا لا يستحق الإشارة أو التنبيه بمرور الوقت؛ مرد ذلك يعود إلى أن عصر المعلومات الذي نعيشه الآن لم يعد يسمح لنا باختيار بدائل معينة كما كنا نفعل في السابق؛ لذا ينبغي البحث عن أساليب أخرى تجاري من خلالها التطورات المعرفية دون اللجوء إلى تعقيدات اللجان.

رابعًا: غياب الفلسفة التربوية الواضحة

معروف أن الفلسفة التربوية هي وجهة النظر التي تحدد أسلوب العمل في المؤسسة التربوية؛ وبموجبها يتم اشتقاق الأهداف التربوية ثم بعد ذلك تُصاغ أهدافٌ سلوكية تحقق الأهداف المرجوة من العملية التربوية؛ ولعل هذا الأمر ينطبق على وجود فلسفة تربوية واضحة بيد أن الأمر جد مختلف في حال غياب الفلسفة أو غموضها وعدم وضوحها؛ ذلك أن غياب هذه الفلسفة قد يفضي بالخطاب التربوي إلى حالة تناقض عند بثِّ الرسائل إلى جمهوره من المتعلمين وفي حال استمرار التناقض فإن النتيجة المعروفة سلفًا؛ صرف الانتباه عن متابعة رسائله هذه، ومن يتتبع الخطاب الصادر عن المؤسسة التربوية في البلاد العربية يجد أن غياب الفلسفة التربوية عن هذه المؤسسة قد أدى إلى غياب الأهداف التربوية الواضحة؛ وذلك يعود إلى أن الخطاب السياسي أخذ يتولى تحديد الأهداف التربوية؛ ولقد ترتب على ذلك أن الخطاب التربوي أخذ ينحو منحى يوتوبيًّا وأحيانًا أخذ ينحو منحًى متناقضًا؛ ولأن الخطاب السياسي هو المهيمن على المؤسسة التربوية فمن الطبيعي أن يكون خطابها معبرًا عن أهداف الخطاب السياسي.

وهنا نصل إلى مسألة لا بد من الإشارة إليها: وهي أن الخطاب السياسي في كثير من البلاد العربية تعددت أهدافه تبعًا للمراحل التي مرَّ بها فتارة يكون معاديًا للاستعمار ولإسرائيل، وتارة مؤيدًا للسلام مع إسرائيل ومحبًّا للتحرر والتقدم، وتارة يدعو إلى التزام مبادئ الدين الإسلامي، وتارة يرفض المبادئ

التي أقرها في المرحلة السابقة ويدعو إلى مبادئ جديدة بحجة أنها لم تعد تتناسب مع المرحلة الراهنة، وتارة يدعو إلى وضع خطة لإصلاح المؤسسة التربوية، وتارة أخرى يتخلى عنها ثم يدعو إلى نبذ التدرج في طلب العلم وتحصيله.

إن كل هذه الأهداف يحاول الخطاب السياسي تضمينها في المناهج الدراسية ليتسنى له إحداث تغيير في اتجاهات المتعلمين؛ وذلك لزيادة المؤيدين له في مسعاه.

وتأسيسًا على ما سبق يمكن القول: إن الأهداف التربوية قد أصبحت غير واضحة بعد تغييب الفلسفة التربوية ولما كانت هذه الأهداف غير واضحة فمن المتوقع والحال هذه أن تكون هناك حيرة وارتياب في صفوف المعلمين، والمدرسين، وأساتذة الجامعة فيما يعلِّمون وكيف يعلِّمون؟ وبالتبعية نتوقع أن ثمة تساؤلات تصدر عن التلميذ في الابتدائية والطالب في الثانوية والجامعة عن مدى صحة هذه الأهداف ولاسيما أنه يسمع ويرى نقيضها.

الآثار المترتبة على عجز الخطاب التربوي عن تشكيل السلوك

لقد اتضح لنا من الحديث السابق أن الخطاب الصادر عن المؤسسة التربوية في البلاد العربية هو خطاب يعاني من العجز والضعف؛ مما أدى إلى صعوبة تشكيل سلوك المتعلمين؛ ولأنه خطاب يتصف بالعجز والضعف فلقد ترتب عليه جملة من الآثار النفسية نوجزها على النحو الآتي:

١ - الإحساس بالاغتراب عن المجتمع

يُلاحظ على الخطاب الصادر عن المؤسسة التربوية في البلاد العربية أنه خطاب ينمي الاغتراب لدى المتعلمين ولا سيما الاغتراب عن المجتمع، وإذا نحن عدنا إلى الأسباب التي تجعل هذا الخطاب ينمِّي الاغتراب؛ لوجدنا أن الرسائل الاتصالية التي ينطوي عليها هذا الخطاب تدعو إلى اكتساب المعرفة والسعي الحثيث للتعلم وذلك لضمان المستقبل وتحقيق الأهداف الشخصية، وهذه الصياغة اللفظية يصور لنا الخطاب التربوي مسألة السعي الحثيث لاكتساب المعرفة دون أن يشير صراحة إلى ما ينبغي فعله في مرحلة ما بعد انتهاء (التعلم المؤسسي).

وتشير الشواهد الواقعية إلى أن ثمة معاناة يتعرض لها المتعلم مردها أن سنوات التعلم قد لا تحقق له المكانة الاجتماعية التي يحلم بها بدليل أن الكثير من الذين تخرجوا أو أكملوا تعليمهم لم يجدوا لهم فرصة عمل مناسبة، وإن وجدوها فقد لا تكون متناسبة مع مستوى التأهيل الأكاديمي؛ مما يؤدي إلى الإحساس بالمرارة والألم، وبقصد التخلص من مرارة الواقع اليومي أخذ بعض الشباب الذين يواصلون دراستهم في مرحلة البكالوريوس أو الدراسات العليا يعقد أمالًا على الهجرة إلى البلاد التي تمكنهم من تحقيق أهدافهم الحياتية.

وحسبنا أن نشير هنا إلى العواقب الوخيمة على إشاعة الهجرة بين صفوف الشباب:

أ- إن إشاعة الهجرة بين صفوف الشباب المتخرجين من الجامعات والمعاهد سيؤدي على المدى المنظور إلى ضعف اندماج هؤلاء في مجتمعهم وعدم اكتراثهم بما يجري فيه[٢٦] ؛ مما يجعل من الهجرة خلاصًا من واقع مؤلم.

ب- إفراغ المجتمع من قوى التغيير[٢٧] الاجتماعي ذلك أن المجتمع يعول كثيرًا على هذه الكفاءات المتخرجة من الجماعات والمعاهد للإسهام في تنميته، فما بالك في هجرته إلى بلاد أخرى؟ فإن النتيجة المتوقعة أن المجتمع سيعاني مزيدًا من المشكلات المتعلقة بموارده البشرية الماهرة.

٢- تنمية الإحساس بالقهر

من المفيد الإشارة إلى أن المجتمع المأزوم عادة ما يعمد إلى تنمية نموذج من البشر يطلق عليه (نموذج الإنسان المقهور) والحقيقة أن هذا النموذج من البشر قد عانى من الغبن، والظلم، وامتهان الإرادة، والتمايز الاجتماعي؛ ولقد وجد أن هذا النموذج من البشر يشيع إثر قهر النظام السياسي واستبداده، وعدم تقدير واحترام إنسانية الفرد، وصعوبة تحصيل الرزق، وندرة الموارد، وعدم كفايتها، وهيمنة القوة والنفوذ في العلاقات بين الأفراد، وهنا يبزر دور الخطاب التربوي في تكريس القهر ولكن بطريقة غير مباشرة إذ أخذ من جانبه- نتيجة هيمنة الخطاب السياسي عليه- في تسويغ القهر الذي يتعرض له الأفراد وذلك بإضفاء هالة من التقديس عليه أو كونه امتحانًا سماويًّا أو اختبار صبر الصابرين كما يسميه الخطاب الديني، وقد ترتب على ذلك أن الخطاب التربوي أصبح متناقضًا في طروحاته فتارة يدعو إلى العقلانية والمنطق العلمي وتارة أخرى يرتكن إلى الغيبية والخرافة واللاعقلانية.

وغاية ما يمكن قوله بشأن المؤسسة التربوية والخطاب الصادر عنها أنها

أخذت تدخل طروحات الخطاب السياسي والتعبير عنها بعديد من الأساليب لعل من أهمها:

المعلم والمقررات الدراسية، فضلًا عن التشريعات التربوية، فالمعلم على سبيل المثال هو يمثل سلطة المؤسسة التربوية أو لنقل: إنه يمثل سلطة النظام الاجتماعي على أقل تقدير داخل القاعة الدراسية، يعمد إلى نشر الخوف بين المتعلمين لمجاراة سلطته وأوامره، وبمرور الوقت يألف هؤلاء المتعلمون الإذعان لقراراته وأوامره، وبذلك يغدو المعلم السيد المطاع الذي لا تعارض قراراته أو لا يناقش فيما عزم عليه؛ مما يفضي إلى تكوين علاقة تراتبية بين الطرفين تخلو من الصفة الإنسانية، ووفقًا لهذا المنطق يتحول المعلم إلى قوة مهيمنة تفرض معرفة من نوع معين تلك المعرفة التي يرغب بها النظام الاجتماعي وحسب.

أما المعرفة التي تؤدي إلى استبصار المتعلمين وإشاعة الأفكار التي تدعو إلى النقد والخروج على المألوف ومقاومة القديم والدعوة إلى الجديد، فإنه سينبذها ولا يدعو إليها حتى لقد وصل الأمر ببعض المعلمين أن وجدوا المتعلمين يتعاطون مثل هذه الأفكار، أو يحاولون نشرها وتداولها، فعادة ما يُتهم هؤلاء بكونهم من المعادين لوحدة المجتمع بل ومن المحرضين على الخروج على قوانينه ونظمه، وربما يصل الأمر بالموالين للنظام الاجتماعي إلى اتهام هؤلاء بالتآمر على سلطة النظام الاجتماعية والعمل لمصلحة جهة أجنبية وإنها لمحنة ما بعدها محنة! أن يتعرض كل ذي بصيرة إلى المراقبة أو المساءلة من هذا الطرف أو ذلك.

وكذا الحال مع المقررات الدراسية فهي الأخرى تعمد إلى تكريس القهر؛ وذلك بعديد من الطرق لعل من أبرزها: تسويغ الظلم والقهر الذي يعاني منه الأفراد بطريقة غيبية أو قدرية بهدف الحفاظ على العلاقات القائمة وعدم

المساس بها وذلك بإضفاء نوع من الشرعية على هذه العلاقات والادعاء بأن الخير العميم الذي تتمتع به البلاد كان بفضل حكمة ودراية النظام الاجتماعي الذي أشاع بدوره الازدهار في المجتمع ولولاه لأصبحت الحياة الاجتماعية أشبه بالجحيم.

بعبارة أخرى فإن المقررات الدراسية أخذت تصور الواقع الاجتماعي بكونه يوتوبيًّا اجتماعية فاضلة لا بؤس فيها ولا حرمان، وأن الناس سواسية، وأن النظام الاجتماعي في سعي دائب لإحلال مجتمع دون طبقات. وهنا تكمن الخطورة!

إن المتعلم الذي يتعرض لمثل هذه الرسائل الاتصالية المليئة بالمتناقضات سيصرف انتباهه عنها؛ بسبب أن معطيات الواقع اليومي على خلاف ما جاء في هذه الرسائل؛ إذ هو يعيش بين ظهراني مجتمع يعاني من الحرمان، والفقر، والكبت، وهو واحد من هؤلاء الذين يعانون وعندما يحاول إن يجد حلًّا لهذه المتناقضات أو يحاول أن يفهم حقيقة الأمر؛ وذلك بإلقاء بضعة أسئلة على معلمه؛ فإن المعلم يجابهه على الفور بالمسوغات التلقينية التي اعتاد عليها الخطاب التربوي المؤسسي، وعند تقديم بعض الأدلة والشواهد على خلاف هذه المسوغات يعاجله بضرورة التزام الصمت وعدم السماح له بالجهر بها علانية وكأن لسان حال المعلم يقول: قبل بالوضع الحالي والزم الصمت إيثارًا للسلامة.

ومما يخشى منه أن استمرار الخطاب التربوي على تكريس حالة القهر في مدارسنا وجامعاتنا العربية سيكون له عواقب وخيمة لعل من بينها:

أ- إن محاولة قهر الأفراد وإرغامهم على التزام الصمت وعدم السماح لهم بالحديث عن وضعية المجتمع إلا بالحدود المسموح بها سينمي حالة من

التذمر والاستياء والنقد يتحدث بها هؤلاء إلى الخلصاء إيثارًا للسلامة، ثم تتطور هذه الحالة بعد ذلك إلى سخرية وتهكم من الوضعية الاجتماعية وإن لم يعبر عنها صراحة ولكنها تتقنع بأقنعة ظاهرها الشكوى من ضيق الحال، وباطنها المعارضة.

والأخطر من ذلك أنه في حال تعرض المجتمع إلى أزمة اجتماعية سيجد هؤلاء الساخطون على النظام الاجتماعي بعد أن تضعف سلطته فرصة للخروج على قوانينه ونظمه إثر القهر والكبت والذي كان ذا قوة في وقت مضى.

ب- إن استمرار فرض المعرفة التي تتناسب مع أيديولوجية المسيطرين وتجنب المعرفة التي تتنافى مع تلك الأيديولوجية سيؤدي إلى خفض الإنجاز الدراسي وفي حال استمرار هذا الانخفاض سيؤدي بطبيعة الحال إلى عدم قدرة المجتمع على مواكبة التطورات التي تجري في الحضارة الإنسانية؛ انطلاقًا من القول القائل: إن الزمن القادم هو زمن المعلومات، وهذا يقتضي المواكبة المستمرة للجديد وإلا فإن المجتمع سيعاني المزيد من المشكلات المتعلقة بوجوده وخصوصيته الثقافية.

ج- لقد أصبح واضحًا أن خطابنا التربوي لا يدعو إلى التطلع إلى المستقبل بل يدعو في حقيقة الأمر إلى النكوص إلى الماضي؛ وذلك بإطالة الحديث عنه، والتغني بأمجاده، والمبالغة في سرد وقائعه وأحداثه؛ وستكون العاقبة أن الأجيال ستعاني من صعوبة التمييز في الأبعاد الزمنية الثلاثة إذ ليس هناك تمييز بين الماضي والحاضر، أو بين الماضي والمستقبل؛ أو بين الحاضر والمستقبل؛ ذلك أن أساليب التعامل ستكون نفسها في كل الأبعاد الزمنية الثلاثة.

وعلى حد تعبير توفلر -وهو الباحث في علوم المستقبل-: إنه في المجتمع التقليدي يزحف الماضي إلى الحاضر ويعيد نفسه في المستقبل؛ وفي مثل هذا المجتمع تكون الطريقة المثلى لإعداد الطفل هي تزويده بمهارات الماضي؛ لأنها نفس المهارات التي سيحتاج إليها في المستقبل[٢٨].

واضح من سياق هذه العبارة أن الماضي في المجتمع التقليدي أصبح بعدًا زمنيًّا مفضلًا، ومن الصعوبة بمكان توجيه أنظار الأجيال إلى المستقبل ولعل ذلك يعود إلى أن التنشئة الاجتماعية أخذت تركز في تفضيلاتها على الماضي بوصفه بعدًا زمنيًّا أكثر من تركيزها على الأبعاد الزمنية الأخرى؛ ولقد ترتب على ذلك التعلق بالماضي دون غيره من الأبعاد الزمنية الأخرى إذ يجد فيه الأفراد ألفة؛ لذا يصعب التخلي عنه؛ مما يجعل الأبعاد الزمنية الأخرى تنطوي على غموض يصعب احتماله وعلى خلاف ذلك يجد هؤلاء الأفراد في الماضي قدرة على الاحتمال الذي يسهل التعامل معه.

د- ومما يترتب على وضعية القهر التسي يكرسها الخطاب التربوي قد يجعل الفرد يتعلم العجز أو إيصاله إلى حالة عجز متعلم Learned Helplessness عندما ينظر إلى الغير فيجد مكانة لهم على مدارج الحضارة الإنسانية بينما لا يجد لأبناء مجتمعه مكانة تذكر على مدارجها. وعند ذاك سيتعلم أن المعارف والعلوم التي يدرسها غدت ضعيفة؛ مما يعني الوصول إلى قناعة بُعد قدرة المجتمع على إنتاج ما أنتجه الغير ومن ثمَّ تكوين اتجاهات تحط من قدر المجتمع وترفع من شأن الآخر.

٣- وبما أن خطابنا التربوي يعيد إنتاج نفسه، أو يعيد إنتاج العلاقات السابقة، وليس ثمة ما يشير إلى وجود جدة فيه فهو إذن لا يؤدي إلى تنمية الميول Interests لدى المتعلمين عمومًا، وإن جرت محاولات لتنمية بعض الميول فإنه ينمي بطبيعة الحال تلك الميول التي تتناسب مع أيديولوجية النظام

الاجتماعي حصرًا؛ لذا فإن خطابنا التربوي لا ينمى الميول التي تنطوي على الإقناع واستكشاف العالم من حولنا ومعرفة أسراره وخفاياه، بل ينمي ميولًا تتفق مع أيديولوجية التعبئة فحسب أما الميول التي تنطوي على الفكر، والثقافة، والتحليل، والأصالة، فإنه لا يدعو إليها دعوة حقة، وإنَّ ثمة شواهد واقعية تشير إلى أن خطابنا التربوي قد انشغل بالتعبئة للسلطان أكثر من انشغاله بتنمية الميول المعرفية، والجمالية، والأدبية.

ولعل من أبرز هذه الشواهد أن نسبة كبيرة من الطلبة ممن هم الآن على مقاعد الدراسة في الجامعات أو من المتخرجين منها لا يجيدون التعبير عن مشاعرهم وحقيقة ما يدور بداخلهم، بل الأهم من ذلك أن هؤلاء لا تشغلهم الآن قضية التغيرات التي يمر بها عالمنا المعاصر، ولا يعرفون حقيقتها وآليات التغيير فيه، بل لقد وصل تدني المستوى الثقافي لهؤلاء الطلبة أنهم عزفوا عن قراءة كتاب أو مجلة في حقول معرفية معينة، وحتى الكتب المقررة رسميًّا عزفوا عن قراءتها؛ واكتفوا بنصوص المحاضرات الموجزة.

فأي جيل هذا الذي ينتظره المجتمع؟ وما التغييرات التي يُتوقع منه أن يحدثها؟!

إنها بحق عملية تزييف للوعي الاجتماعي[٢٩] كما أطلق عليها الباحث العربي عبد الباسط عبد المعطي من الناحية الاجتماعية، أو إنها عملية تضليل، أو تمويه، أو خداع لحقيقة الأمر من الناحية النفسية. وغاية ما يمكن قوله بشأن خطابنا التربوي أنه لم يؤدِّ دورًا يذكر في تنمية الميول لدى المتعلمين، وليس هناك نية على المدى المنظورَ لتنمية ميول تتفق مع عصر المعلومات.

الهوامـــش

(١) حسن محمود شمال، سيكولوجية الخطاب في برامج البث الوافد من الفضاء- الحكمة (بغداد) العدد (٩)- السنة ٢ (آيار -مايو- ١٩٩٩) ص ٩٣-٩٤.

(٢) رضا محمد جواد، العرب والتربية والحضارة: الاختيار الصعب ط٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٣) ص ٢٦- ٢٨.

(٣) النقيب، خلدون حسن، المشكل التربوي والثورة الصامتة دراسة في سوسيولجيا الثقافة -المستقبل العربي العدد ١٧٤ السنة ١٦ (آب- أغسطس- ١٩٩٣) ص ٧٩.

(4) Hetherington, E.M. and parke, R.D child psychology: Acontem porary view point , 3 rd ed (New york: Mcgraw-Hill Book company, 1986). P.600- 601.

(٥) ألبان غادة قضيب -التعليم مشروع اقتصادي- المستقبل العربي العدد ١٤٦ السنة ١٩٩١ ص ٧٧- ٧٩.

(٦) نصار على -عطاء المثقف العربي في الإبداع العلمي- ورقة قدمت إلى المثقف العربي: همومه وعطاؤه: بحوث الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ط١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٥) ص ٢٤٤.

(٧) محمود شمال حسن، المجتمع المنجز: رؤية تصورية لتهيئة المجتمع العربي للإنجاز، شئون عربية، العدد ٩١ (أيلول- سبتمبر - ١٩٩٧) ص ١٠٨-١٠٩.

(٨) رضا محمد جواد -الدولة ودروها الجديد في إعادة الهندسة الاجتماعية -المجلة الثقافية (عمان) العدد (٣٣) (١٩٩٤) ص ٥٩.

(٩) رضا محمد جواد -أزمات الحقيقة والحرية في التربية المعاصرة ط١ (الكويت: منشورات ذات السلاسل ١٩٨٧) ص ٢٠٨.

(١٠) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا – أثر سياسات الاقتصاد الكلي والسياسات الاجتماعية على الفقر: حالة الأردن ومصر والجمهورية اليمنية (نيويورك: الأمم المتحدة ١٩٩٧)ص ٩٤.

(١١) المصدر نفسه ص ٩٧.

(١٢) المصدر نفسه ص ٩٨.

(١٣) المصدر نفسه ص ٩٨.

(١٤) عبد الله إسماعيل صبري -التنمية البشرية في البلدان الآسيوية المصنعة حديثًا: حالة كوريا الجنوبية، ورقة قدمت إلى: التنمية البشرية في الوطن العربي: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية واللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الاسكوا) وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٥) ص ١٨٧.

(١٥) حسن محمود شمال، صغار في أزمة: دراسة الآثار النفسية والاجتماعية الناجمة عن تعرض الأطفال للأزمة الاقتصادية، بحث ألقى في المؤتمر العلمي العربي الأول الذي نظمه مكتب الاستشارات النفسية في مركز البحوث النفسية بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي وذلك في بغداد للمدة ما بين ٢٤- ٢٦ تشرين الثاني ١٩٩٨.

(١٦) موسن: بول وآخرون، أسس سيكولوجية الطفولة والمراهقة، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة ط١،(الكويت: مكتبة الفلاح ١٩٨٦) ص ٤١٧.

(١٧) المصدر نفسه ص ٤١٧.

(١٨) المصدر نفسه ص ٤١٧.

(١٩) المصدر نفسه ص ٤١٧.

(٢٠) عبد المعطي عبد الباسط -بعض المتغيرات الاجتماعية المؤثرة في العلاقة بين التعليم والتنمية البشرية في الوطن العربي، ورقة قدمت إلى: التنمية البشرية في الوطن العربي: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية واللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الاسكوا) وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٥) ص ٣١٥.

(٢١) الفارس عبد الرزاق، الحكومة والفقراء والإنفاق العام: دراسة لظاهرة عجز الموازنة وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية ط ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٧) ص ١٧٧ اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي

آسيا ١٩٩٧) المصدر السابق ص ٩٤.

عزيز حنان، عزوف التلاميذ عن التعليم أسبابه ومعالجاته، الأسرة العربية (تونس) العدد ٢ ،١٩٩٤ ص ١٣٨، المهاجر محمد كاظم، الفقر في العراق قبل وبعد حرب الخليج سلسلة مكافحة الفقر ٤ (نيويورك: الأمم المتحدة اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا ١٩٩٧) ص ٢٣ حسن محمود شمال، وضعيات السلوك البشري أثناء وقوع الكارثة وما بعدها، الموقف الثقافي (بغداد) العدد ٢٤. السنة ٤ (تشرين الثاني --كانون الأول ١٩٩٩) ص ٤١.

(٢٢) هرمز صباح حنا، سيكولوجية لغة الأطفال ط١ (بغداد دار الشئون الثقافية العامة ١٩٨٩) ص ١٣٦.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٢٤) نور الدين محمد عباس، الطفل العربي وتكافؤ الفرص في الحياة، شئون عربية، العدد (٩٠) (حزيران ١٩٩٧) ص ١١٢.

(٢٥) لبيب رشدي وآخرون، المنهج: منظومة لمحتوى التعليم (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٤) ص ٥٩.

(٢٦) حسن محمود شمال، قلق المستقبل لدى الشباب المتخرجين من الجامعات، المستقبل العربي السنة ٢٢ (تشرين الثاني- نوفمبر ١٩٩٩) العدد ٢٤٩ ص ٨٥.

(٢٧) فرجاني نادر، الهجرة إلى النفط أبعاد الهجرة للعمل في البلدان النفطية وأثرها على التنمية في الوطن العربي ط٣ (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٤) ص ٦٤.

(٢٨) توفلر ألفين، صدمة المستقبل، المتغيرات في عالم الغد، ترجمة محمد على ناصيف (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر: ١٩٧٤) ص ٤٢٠.

(٢٩) عبد المعطي عبد الباسط، التعليم وتزييف الوعي الاجتماعي: دارسة في استطلاع مضمون بعض المقررات الدراسية مجلة العلوم الاجتماعية العدد ٤ (١٩٨٤) ص ٦٣.

الآخر بوصفه صورة تلفزيونية
خطاب الصورة وأثره في استثارة السلوك العدواني

المقدمة

لقد أصبح التلفزيون في الوقت الحاضر وسيلة ترفيهية تجذب الكبار والصغار إليها، وبدأنا نتحسس أهميته عندما يغيب عنا ونحن في جلسة أسرية، وقد أصبح الحديث مشوقًا ويبعث على المتعة عندما يكون بحضور التلفزيون: ويطلعنا التلفزيون على العالم برمته، ويجعله في لحظات معدودة أمام أنظارنا، ولا تكمن فائدة التلفزيون بنقل أخبار العالم السياسية فحسب بل يقوم في نقل كل جديد عن هذا العالم؛ لكي نكون على اتصال بما يجري فيه من أحداث وتطورات.

لقد أصبح التلفزيون يشارك الناس همومهم ومشكلاتهم؛ حتى وصل الحال بالفرد الذي يتعرض لمشكلة ما أن يلجأ إلى الإكثار من المشاهدة التلفزيونية إذ يلتمس بعض الحلول من برامجه المختلفة.

غير أن التلفزيون الذي قدم إلينا المتعة والتسلية عبر برامجه المختلفة بدأت توجه إليه بعض الانتقادات؛ لكونه أخذ يعرض برامج تشتمل على الجريمة والعنف؛ مما يؤدي إلى اكتساب الأطفال والمراهقين أنماطًا سلوكيةً سلبيةً.

وقد أثارت هذه الانتقادات نقاشًا وجدلًا في هذا الميدان، وكثرت الآراء وتعددت إلى الحد الذي أصبح موضوع المشاهدة التلفزيونية إشكاليةً لم تحسمها الدراسات سواء الميدانية منها أو التجريبية.

وهكذا تبقى المشاهدة التلفزيونية إشكاليةً قائمةً تتصدى لها الدراسات على النحو الآتي:

هل المشاهدة التلفزيونية التي تتسم بالعنف تجعل الفرد عدوانيًّا؟ أم أن سمة العدوان عند الفرد هي التي تؤدي به إلى مشاهدة برامج العنف؟

بغية إيجاد حل لهذه الإشكالية ستقتصر مناقشتنا على الفقرات الآتية:

- مسلمات المشاهدة التلفزيونية.
- الاتجاهات الفكرية للمشاهدة التلفزيونية.
- دراسة العلاقة بين المشاهدة التلفزيونية والسلوك العدواني.

مسلمات المشاهدة التلفزيونية

تستند مشاهدة التلفزيون إلى جملة مسلمات نستعرضها على النحو الآتي:

١- إن الجميع يشاهد برامج التلفزيون بما فيهم الأطفال.

٢- إننا نحث الأطفال على مشاهدة برامج التلفزيون بقصد منا أو من دون قصد؛ لنتجنب الضوضاء الصادرة منهم بعض الوقت.

٣- أصبح التلفزيون في الوقت الحاضر وسيلة ترفيهية تجذب أفراد الأسرة.

٤- يفضِّل بعض الأفراد تناول الطعام أو احتساء الشاي أمام شاشة التلفزيون لغرض التسلية.

٥- يشعر أفراد الأسرة بالحزن والاكتئاب عند غياب التلفزيون عنهم.

٦- أصبح التلفزيون إحدى الوسائل المهمة لتزويد الفرد بالمعلومات الإخبارية والعلمية.

٧- أصبح التلفزيون يشبع بعض اهتمامات الأفراد سواء كانت رياضية أم علمية أم إخبارية.

استنادًا إلى هذه المسلَّمات فإن التلفزيون لا يمكن الاستغناء عنه، ومهما فعلنا لنتجنب مشاهدته لن نفلح؛ بسبب حضوره الدائم معنا؛ ولأن العالم الذي نعيش فيه قد بلغ شأوًا واسعًا من التعقيد؛ مما يستدعي أن تكون بيننا وسيلة أو أداة فاعلة تحقق لنا هذا الغرض؛ والتلفزيون هو الأداة الفاعلة التي

تحقق لنا عملية الاتصال مع العالم الذي نعيش فيه.

الاتجاهات الفكرية للمشاهدة التلفزيونية

اختلفت الآراء حول مشاهدة التلفزيون، فتارة نجد بعض المتخصصين في علم النفس يحذرون من المشاهدة التلفزيونية، وتارة أخرى يشجع البعض على المشاهدة ومع ذلك هناك ثلاثة اتجاهات فكرية يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار عند دراسة مشاهدة التلفزيون.

١- إن مشاهدة العدوان على شاشة التلفزيون ستؤدي إلى تعليم الفرد العدوان بوصفه أسلوبًا لحل الصراع.

٢- إن مشاهدة العدوان على شاشة التلفزيون ستؤدي إلى التنفيس عن الانفعالات المكبوتة لدى الفرد.

٣- إن العلاقة بين مشاهدة التلفزيون والسلوك العدواني الذي يظهره الفرد فيما بعد هي علاقة غير حاسمة.

والآن لنحاول أن نتعرف على كلٍّ اتجاه من هذه الاتجاهات الثلاثة والأدلة التي تسند منطلقاتها.

١- إن مشاهدة العدوان على شاشة التلفزيون ستؤدي إلى تعليم الفرد العدوان بوصفه أسلوبًا لحل الصراع:

يمثل هذا الاتجاه نظرية التعلم الاجتماعي، وحسب منطلقات هذه النظرية فإن السلوك الاجتماعي يتم اكتسابه من خلال ملاحظة الآخرين وهم يظهرون استجابات مختلفة. والعدوان أحد أشكال السلوك الاجتماعي؛ حيث يتم اكتسابه من خلال مشاهدة النماذج وما تظهره من عدوان تجاه البيئة المحيطة بها[1].

وهي لا تعدُّ العدوان غريزةً كما ذهبت إلى ذلك نظرية التحليل النفسي؛

بل إنها تُعَدُّ كأي استجابة متعلمة [٢] يتم اكتسابها من خلال مشاهدة النماذج العدوانية. ففي إحدى التجارب والتي أجراها (باندورا) أوضحت تأثير مشاهدة النموذج على تعلم السلوك العدواني.

فقد قسم أطفال الروضة إلى خمس مجموعات: حيث يشاهد أطفال المجموعة الأولى شخصًا راشدًا يضرب دميةً بلاستيكية؛ ويشاهد أطفال المجموعة الثانية نفس الحدث؛ كما يشاهد أطفال المجموعة الثالثة شخصيةً كارتونيةً تتصرف بشكل عدواني؛ والمجموعة الرابعة هي مجموعة ضابطة؛ بينما تشاهد المجموعة الخامسة نموذجًا إنسانيًّا يتصرف بطريقة غير عدوانية.

وبعد ذلك وضع كل طفل في الموقف الذي شاهد فيه النموذج؛ وتبين أن المجموعات التي شاهدت نموذجًا عدوانيًّا أظهرت استجابات عدوانية أكثر من المجموعة الضابطة.

كما أن المجموعة التي شاهدت النموذج غير العدواني أظهرت استجابات عدوانية أقل من المجموعة الضابطة. [٣]

وعن الكيفية التي يكتسب بها السلوك العدواني تشير النظرية إلى ثلاثة مكونات: الاكتساب، والأداء، والاحتفاظ: فالسلوك الاجتماعي ومنه العدوان يكتسب بفعل التعزيز أو الإثابة. [٤]

وعلى هذا الأساس فإن الفرد ينمذج سلوك الآخرين عندما تعزز استجاباته؛ مما يساعد على ظهورها في موقف لاحقة.

أما الأداء فنعني به: أن يكون الفرد قادرًا على التصرف بعدوانية [٥] إلى الحدِّ الذي يلحق الأذى أو الضرر بالطرف الآخر.

في الحقيقة إن إظهار السلوك العدواني يعتمد على الظروف التي تحرض

على العدوان وكذلك الإشارات البيئية[٦]. فالإحباط، والحرمان، والمضايقة، والأذى، والتمييز في المعاملة الوالدية وغيرها؛ هي ظروف محرضة على العدوان أو هي محرضات على السلوك العدواني ومن الممكن أن يحرض العدوان في أية لحظة شريطة أن تكون هناك إشارات CUES لانطلاق العدوان.

وهذه الإشارات هي بمثابة الإصبع الذي يضغط على الزناد لإطلاق النار، ففي إحدى الدراسات التي أجريت في المختبر شاهدت إحدى المجموعات من الأطفال التلفزيون وهو يعرض أحداثًا محايدة لفترة قصيرة بينما شاهدت المجموعة الثانية أحداثًا رياضية تنطوي على هياج وإثارة ثم بعد ذلك سمح للأطفال الاشتراك في نشاطات مثل: مساعدة طفل، أو إلحاق الأذى بطفل آخر؛ وأشارت النتائج إلى أن الأطفال الذي شاهدوا الأحداث العدوانية كانوا أكثر رغبةً في إلحاق الأذى بالأطفال الأُخَر من الذين شاهدوا أحداثًا محايدة[٧].

ومن هنا فإن عرض التلفزيون للأحداث العدوانية كان بمثابة الإشارة في التحريض على العدوان بعد أن تهيأت الظروف المحرضة، واستنادًا إلى ذلك فإن العدوان لا يستثار إلا بعد توفر الإشارة التي تلي الظروف المحرضة، وبهذا فإن العدوان يظل كامنًا حتى ظهور العامل المعجِّل (الإشارة) في أحداث العدوان ولقد لوحظت أثناء الشغب [٨] مثل على هذه الإشارات؛ لأن الجمهور قد تأثر كثيرًا بسلوك النماذج التي أظهرت الهياج؛ مما ساعد على زيادة سلوك الشغب بين الجمهور وانضمام المزيد من الأفراد إليه ومن ثَم انتشاره إلى رقعة جغرافية أكبر.

والاحتفاظ- وهو المكون الثالث- نعني به أن العدوان من الممكن أن يتكرر عند تعزيزه أو إثابته [٩] بينما لا يعاود ظهوره مرة أخرى عند مشاهدة

نموذجًا وهو يُعَاقب على سلوكه العدواني، وعلى ذلك فإن الفرد الذي يشاهد الكثير من البرامج العنيفة من المحتمل أن يظهر العدوان في موقف ما إن كان هناك تعزيزًا لسلوكه العدواني والعكس صحيح، إذ يَكُفُّ عن إظهار عدوانه إن كان هناك عقاب، ويبدو أن المناخ الأسري المضطرب يكسب الطفل سلوكًا عدوانيًّا إذ وجد أن اللجوء إلى التهديد والوعيد والعقوبة التي تستخدم في حلِّ الصراعات أو الخلافات بين أفراد الأسرة تساعد الطفل على الاحتفاظ بالعدوان، ومن ثمَّ اتخاذه أسلوبًا لحل صراعاته[١٠] أو خلافاته سواء مع إخوانه الصغار، أو مع أقرانه وهذا يشير إلى أن القسر والشدة التي تلاحظ في سلوك الأطفال هي نتاج التعلم في أجواء أسرية مضطربة.

٢- إن مشاهدة العدوان على شاشة التلفزيون ستؤدي إلى التنفيس عن الانفعالات المكبوتة لدى الفرد:

هذا الاتجاه يقوم على أساس فرضية التنفيس CATHARSIS، فقد لاحظ فرويد أثناء معالجته للهستريا أن الشخص المضطرب نفسيًّا يشعر بالارتياح عندما يُسمح له بأن يستدعي حدثًا مصحوبًا بألم وعند عدم السماح للفرد بالتعبير عن عدوانيته فإن الأمر يقتضي أن تفرغ طاقة الغضب فإن لم يجد منفذًا لها فإن الفرد يبحث عن منفذ آخر[١١] وهكذا يستمر في البحث حتى يجد المنفذ لتفريغ هذه الطاقة.

وفيما بعد أدخل فشباخ مبدأ التنفيس عند مشاهدة العدوان على شاشة التلفزيون وأشار -استنادًا إلى وظيفته النفسية- إلى أنه يعمل على امتصاص كمية العدوان لدى المشاهد[١٢].

فيجد في البرامج العدوانية تنفيسًا عن الانفعالات المكبوتة لديه، وتصريفًا لكل المشاعر والإحباطات التي واجهها، وبذلك فإن الشخص

الذي يشعر بحالة من الغضب ويسمح له بالتعبير عن العدوان قد يكون أقل ميلًا للعدوان من الشخص الذي لم يسمح له بالتعبير عن عدوانيته[١٣]. ففي إحدى التجارب التي أجراها فشباخ شاهد نصف التجربة فيلمًا عدوانيًّا بينما شاهد النصف الآخر من التجربة فيلمًا محايدًا يهتم بانتشار الشائعات في المصنع، وقبل المشاهدة تعرض أفراد التجربة إلى إهانة من شخص ما ثم قدم إليهم اختبارًا من نوع تداعي الكلمة.

فأظهرت النتائج أن الأفراد الذي شاهدوا الفيلم العدواني عبروا عن عدوان أقل من الذين شاهدوا فيلمًا محايدًا[١٤].

نستنتج من ذلك أن مشاهدة العدوان تعمل على تخفيف حالة التوتر والعدوان لدى الفرد استنادًا إلى فرضية التنفيس حيث تصبح المشاهدة التلفزيونية بمثابة المنفذ الذي يتم من خلاله تصريف التوتر.

واستنادًا إلى هذا الرأي فإن المشاهدة تقوم بعملية امتصاص التوتر الذي يعاني منه الفرد فضلًا عن حمايته من الاضطرابات النفسية.

٣- إن العلاقة بين مشاهدة التلفزيون والسلوك العدواني الذي يظهره الفرد فيما بعد هي علاقة غير حاسمة:

أشارت الدراسات في هذا الميدان إلى أن العلاقة بين مشاهدة العدوان على شاشة التلفزيون والسلوك العدواني الذي يظهر فيما بعد هي علاقة غير حاسمة؛ وذلك لأسباب عديدة:

١ - إن الدراسات التي أُجريت في المختبر عن المشاهدة التلفزيونية كانت قد أجريت على أطفال يقومون بتوجيه العدوان إلى دمية بلاستيكية [١٥] والمعروف أن ضرب الدمية يختلف تمامًا عن ضرب الشخص أو إلحاق الأذى

به، وإزاء ذلك لا يمكننا أن نطمئن إلى العلاقة بين مشاهدة العدوان في مثل هذه الدراسات بسبب بساطة الإجراءات وعدم اللجوء إلى ضبط المتغيرات.

٢- لقد استخدم في الدراسات التي أجريت على الأطفال أسلوب قبول العدوان من المجرِّب فقد وجد أنه بمجرد أن يسمح المجرِّب للأطفال بضرب الدمية فإنهم يوجهون إليها المزيد من الضربات ولن يكفوا عن ذلك [١٦] حتى يشاهدوا بأم أعينهم أن الدمية أخذت تتهاوى، وبذلك ليس هناك ما يدعو إلى أن الأطفال قد تأثروا بالمشاهدة.

٣- إن هذه الدراسات قد كشفت عن وجود آثار آنية للمشاهدة التلفزيونية بمعنى أنها تخبرنا بما سيقوم به الطفل بعد أن يشاهد البرنامج التلفزيوني [١٧] ولفترة زمنية قصيرة؛ إذ ليس بإمكانها أن تخبرنا بما سيظهره من أنماط سلوكية بعد فترة زمنية قد تطول، حيث إنَّ الدراسات لم تتوصل إلى حسم هذه النقطة بالذات؛ مما يدعونا إلى توخي الحذر في تعميم هذه النتيجة وإجراء المزيد من الدراسات للوقوف على حقيقة الأمر.

٤- ونشير أيضًا إلى أن هذه الدراسات التي أجريت على الأطفال لا تخبرنا إن كان ضرب الدمية أو ضرب أي شيء آخر مساويًا لإطلاق النار أو مساويًا للأدوات الجارحة، وبالتأكيد فإن إطلاق النار أو استخدام الأدوات الجارحة هي غير ضرب الدمية أو شئ آخر ليست له علاقة بالبشر؛ ولذلك فإن الطفل يُتوقع منه في هذه التجارب أن يستخدم الشدة مع الدمية طالما ليست هناك عقوبات من جانب الوالدين أو من الكبار تترتب على قيامه بهذا السلوك.

٥- إن هذه الدراسات قد تضاربت في تحديد اتجاه العلاقة السببية؛ فقد وجد أن الأطفال الأكثر عدوانية يفضلون البرامج العنيفة[١٨] والعكس

صحيح؛ حيث إن مشاهدة العدوان قد تؤدي إلى اكتساب السلوك العدواني.

٦- تشير بعض الدراسات إلى أن المشاهدة التلفزيونية لا تؤدي إلى السلوك العدواني في حالات معينة ومن هذه الحالات:

أ- توجيه الأطفال والإشراف عليهم عندما يشاهدون التلفزيون؛ وهذا يقتضي أن يخصص الوالدان وقتًا معينًا لأغراض توجيه أطفالهما عندما يشاهدون البرامج التلفزيونية وذلك عن طريق القراءة وتوفير الكتب لهم(١٩)؛ لكي يتمكنوا من استيعاب الأحداث التلفزيونية وتفسيرها بشكل سليم.

ب- إن الأطفال الذين لديهم خبرات قليلة مع الآخرين(٢٠) من السهل أن تؤثر المشاهدة التلفزيونية في سلوكهم الاجتماعي أكثر من أولئك الذي لديهم خبرات واسعة، وهذا يعود إلى أن الخبرات الكثيرة ربما تجعل الأطفال يقاومون إغراءات المشاهدة التي قد تحرض على العدوان.

نخلص إلى القول: إن هذا الاتجاه لم يجد هناك أدلة كافية لحسم العلاقة بين مشاهدة العدوان على شاشة التلفزيون والسلوك العدواني؛ مما يؤيد قولنا: إن التحريض على العدوان بفعل المشاهدة إشكالية لم تتوصل الدراسات إلى إيجاد الحلول المناسبة لها.

العلاقة بين مشاهدة التلفزيون والسلوك العدواني

لقد ركزت الكثير من الدراسات على الاتجاه الأول في المشاهدة التلفزيونية، في حين أن القليل منها ركز على الاتجاه الثاني بينما ركز البعض من هذه الدراسات على الاتجاه النقدي غير أن الاتجاه الأول أكد بشكل لا يقبل الشك أن المشاهدة التلفزيونية تؤدي إلى السلوك العدواني.

بينما أكد الاتجاه الثاني بأن مشاهدة التلفزيون سوف تخفف من العدوان

لدى الفرد، بمعنى أن العدوانية لدى الفرد ستُختزل بمجرد التعرض لأحداث عدوانية، وهي إشارة إلى أن سمة العدوان لدى الفرد تؤدي إلى مشاهدة العنف والاتجاه الثالث لم يتوصل إلى تحديد سببية العلاقة؛ فقد تكون المشاهدة التلفزيونية هي المسئولة عن السلوك العدواني لدى الفرد وربما تكون سمة العدوان هي المسئولة عن جعله يشاهد البرامج العدوانية.

في الواقع إن الكثير من الدراسات التي أجريت في هذا الميدان أيدت الاتجاه الأول، وانطلقت إلا أن إشكالية التأثير تكمن في المتغيرات التي يجب إدخالها في مثل هذه العلاقة.

وقد اختلفت في تحديد هذه المتغيرات، ولم يكن هناك إجماع حول عدد هذه المتغيرات التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند الحديث عن العلاقة بين مشاهدة التلفزيون والسلوك العدواني، وبهذا الصدد نجد من المناسب استعراض المتغيرات التي تساهم في إحداث العلاقة بين المتغيرين.

١- كمية العدوان وعدد ساعات البث التلفزيوني.
٢- جنس الطفل.
٣- المناخ الأسري والمجتمعي الذي يعيش فيه الطفل.
٤- العمر ومعدل المشاهدة التلفزيونية.
٥- المستوى الاجتماعي – الاقتصادي للطفل.
٦- التحصيل الدراسي للطفل.
٧- خصائص شخصية الطفل.
٨- ذكاء الطفل.

١- كمية العدوان وعدد ساعات البث التلفزيوني

إن الإكثار من عرض البرامج التلفزيونية التي تنطوي على مشاهد من

العنف قد تؤدي إلى اكتساب الأطفال بعض الأساليب العدوانية؛ استنادًا إلى أن الأطفال في هذه المرحلة من العمر يقلدون النماذج العدوانية التي تظهر أنماطًا سلوكية غير مألوفة [٢١]؛ مما يساعد على تكرار هذا السلوك غير المرغوب به في مواقف أخرى ،ناهيك عن أن هذه النماذج التي يشاهدها الطفل تُكَافَأ على عدوانها وتثاب عليه [٢٢] وكأن الأمر هو تعزيز للسلوك العدواني وعندما يحدث العكس، أي: مشاهدة النموذج العدواني وهو يعاقب على عدوانه فمن المحتمل أن يكون هناك امتناع أو كف عن إظهار المشاعر العدائية [٢٣] بدرجة كبيرة ولكن ! إن عرض البرامج التلفزيونية التي تشتمل على العدوان لا يكون فعالًا إلا إذا كان هناك تكرار لهذه البرامج [٢٤] كما أن هذه البرامج لا تكون فعالة في التحريض على العدوان إلا بتحويلها إلى أشكال درامية أو تمثيلية بسبب أن الدراما التمثيلية تعمل على تصوير الواقع الاجتماعي وتجعله في متناول يد الطفل فيجد فيها ارتياحًا وسرورًا عند مشاهدتها.

ونستطيع القول بثقة: إن اللقطات التي يعرضها التلفزيون في نشرات الأخبار هي أقل تأثيرًا من تلك البرامج التي تتحول إلى أعمال درامية.

وجدير بالذكر أن زيادة كمية العنف ليست كافية في التحريض على العدوان فحسب، بل يجب أن يصاحبها أيضًا زيادة في عدد ساعات البث التلفزيوني؛ فالزيادة في عدد ساعات البث التلفزيوني سوف تتيح للطفل فرصة المشاهدة في أية لحظة يشاء، وكأن الأمر يصبح إدامة الصلة مع الطفل طيلة اليوم الواحد.

كما أن زيادة عدد ساعات البث هذه سوف تجعل التلفزيون يستحوذ على اهتماماته ورغباته.

بعبارة أخرى: إن النماذج العنيفة التي يعرضها التلفزيون سوف تتغلب

على اهتماماته الأخرى ويصبح تفضيل العنف هو السائد.

إذ إن زيادة كمية العدوان الذي يعرض على الشاشة مصحوبة بزيادة عدد ساعات البث التلفزيوني سوف تضفي خصائص معينة على شخصية الطفل استنادًا إلى الافتراض القائل: إن مشاهدة برامج تلفزيونية معينة ربما تؤدي إلى تنمية خصائص شخصية معينة، ومشاهدة برامج العنف سوف تسهم في تنمية شخصية تتسم بالعدوان وتأكيدًا على هذا الرأي في أن مشاهدة العنف تؤدي إلى العدوان؛ فقد تتبعت إحدى الدراسات أطفالًا بعمر (٨-٩) سنوات جمعت خلالها معلومات عن تفصيلات مشاهدة كلِّ طفل لبرامج التلفزيون وقد تم قياس العدوان عن طريق تقديرات الأقران.

وبعد مضي عشر سنوات أعيدت الدراسة؛ إذ أشارت النتائج أن الذين يشاهدون الكثير من برامج العنف كانوا أكثر عدوانية في علاقاتهم مع الآخرين من أولئك الذين يشاهدون القليل من هذه البرامج [٢٦] كما تبين من النتائج أيضًا عند متابعة السلوك الاجتماعي لهؤلاء الأطفال وهم في سن الرشد أنهم يشاهدون الكثير من هذه البرامج وأنهم أظهروا عدوانًا بدرجة أكبر [٢٧]؛ مما يشير إلى أن المشاهدة التلفزيونية التي يطغى عليها طابع العنف قد تضفي نوعًا من العدوان على سلوك الفرد وبالتالي فإن استمرار المشاهدة وبكمية كبيرة تجعل العدوان خاصية تميز سلوكه من بين خصائص شخصيته.

واستنادًا إلى هذا الرأي يفترض أن تكون نسبة الجريمة في اليابان كبيرة جدًّا؛ حيث إن التلفزيون هناك يعرض كمية كبيرة جدًّا من العدوان [٢٨].

ولكن اتضح من البيانات أن نسبة الجريمة ضعيفة جدًّا مقارنة بنسبة الجريمة في البلدان المتقدمة صناعيًّا بما فيها الولايات المتحدة[٢٩] ومع ذلك فإن زيادة كمية العدوان على شاشة التلفزيون مصحوبة بزيادة عدد ساعات البث

متغير لا بد أن يؤخذ بعين الاعتبار عند دراسة العلاقة بين مشاهدة التلفزيون واستثارة السلوك العدواني.

٢- جنس الطفل

تشير الدراسات إلى أن الذكور أكثر عدوانًا من الإناث في أغلب الثقافات[٣٠] على الرغم من أن العدوان عند الأنثى يقل بدرجة كبيرة بتقدم العمر، بينما يبقى العدوان مستقرًّا عند الذكر؛ وهذا يعود إلى العوامل الثقافية والاجتماعية وسلسلة من التعزيزات التي تقر العدوان للذكر دون الأنثى. وبموجب ذلك فقد حددت الأدوار الجنسية للأفراد في المجتمع. فالذكر يسمح له بأن يتصرف بحرية ودون قيد ويُشَجَّع على الاستقلالية والاستكشاف في حين يسمح للأنثى أن تتصرف بلطف وتتهيأ لأن تكون أمًّا في المستقبل، وأن تخضع للقيود الاجتماعية ويستدل من توزيع الأدوار على الجنسين هو إعداد الذكر لمهمات شاقة وصعبة بينما تأخذ الأنثى دورًا أقل من ذلك بكثير.

طالما أن الذكر أكثر عدوانًا من الأنثى بحكم التنشئة الاجتماعية، فمن باب أولى أن يكون أكثر تأثُّرًا بما يشاهده من برامج عنيفة على شاشة التلفزيون، على الرغم من أن بعض الدراسات تشير إلى أن الإناث أكثر من الذكور مشاهدةً للتلفزيون[٣١] ولكن هذا لا ينفي القول بأن الذكر أكثر من الأنثى تأثُّرًا بالبرامج التلفزيونية، كيف؟

إن الانطباعات التي يكوِّنها كلا الجنسين عن الأحداث والأشياء تكون متطابقة مع الأدوار المتوقعة لكل منهما في المجتمع، وبعبارة أخرى: إن كلًّا منهما يدرك الأشياء والأحداث بطريقة تنسجم مع دوره الجنسي كما تنسجم مع الصور النمطية السائدة عن الجنس في الثقافة.

وتأكيدًا لقولنا هذا فقد استخدمت إحدى الدراسات صورة تحتوي على سلوك عدواني وأخرى لا تحتوي على سلوك عدواني- أي إنها صورة محايدة- ثم عرضت على أطفال ومراهقين وطلبة جامعة، ووضعت الصورتان في جهاز يحتوي على فتحتين يسمح برؤية الصورتين وكانت الصورة الأولى تحتوي على رجل بريد بينما احتوت الصورة الثانية على رجل يحمل سكينًا خلفه.

وعندما طُلِبَ من الأفراد تسمية الصور التي شاهدوها فإن الذكور من الابتدائية وحتى مرحلة الجامعة أشاروا إلى أنهم شاهدوا الصورة التي تحتوي على عدوان، في حين أن الإناث أشرن إلى الصورة التي لا تحتوي على عدوان[٣٢] وبذلك يصبح عامل الجنس أحد المتغيرات التي تحرض على السلوك العدواني من خلال المشاهدة التلفزيونية.

على أن ذلك يعتمد على الأقران الذين يلتقي بهم الطفل وظروف التنشئة الأسرية للذكر، فإذا كان سوك الأقران يتسم بالعدوانية فمن المحتمل أن يتأثر بالبرامج التلفزيونية بسبب أن هؤلاء يشجعونه على تقليد النموذج العدواني ويغدو بمرور الوقت أن هذا النموذج الذي أخذ يقلِّده هو نموذجه الشخصي الذي يجب أن يقتدي به ويحرص على تبني أفكاره ومعتقداته ويسعى إلى الدفاع عنه أثناء الأحاديث التي تدور عنه سواء في ميدان الأسرة أو الأقران أو المدرسة.

أما التنشئة الأسرية فقد تكسب الذكر أنماطًا من المشاهدة وبمرور الوقت تعمل على تعزيزها من خلال اختبار هذه البرامج أو توفيرها له في أوقات معينة، فضلًا عن المبالغة في تأكيد ذكورته فيصبح الأمر بمثابة تحريض غير مباشر على العدوان.

٣- المناخ الأسري والمجتمعي الذي يعيش فيه الطفل

تؤثر الثقافة السائدة بطريقة معينة في تنمية أنماط معينة من السلوك الاجتماعي فقد تساعد على إنماء التوجه المجتمعي والتعاون والمساعدة وضبط النفس في بعض المجتمعات، وفي مجتمعات أخرى تنمي العدوان والتنافر المدمر ونبذ التوجه المجتمعي ويحرص كلُّ الأفراد على نقل أساليب وتوجهات ثقافتهم إلى وسائل الإعلام؛ ليكون بمقدور كلِّ فرد فيها التعرف على هذه الأساليب وكيف تؤثر في سلوكهم، وبذلك يصبح الأفراد على صلة بما يدور في ثقافتهم من شئون حياتية مختلفة.

غير أن نقل أساليب الثقافة وتوجهاتها الحياتية إلى شاشة التلفزيون دون مراعاة لبعض الفئات المحرومة التي من الممكن أن تتأثر بها له عواقب وخيمة؛ فالطفل الذي يعيش في أسرة بائسة ليس بمقدورها أن توفر له بعض مستلزماته سوف تجعله يعيش حالة من الإحباط والتوتر، ومشاهدة البرامج التلفزيونية التي تَعُجُّ بالقتل والسرقة ومظاهر الأبهة قد تعطيه الإشارة cue بارتكاب العدوان.

وعلى سبيل المثال لا الحصر تعد الثقافة الأمريكية من الثقافات التي تسعى إلى إبراز مظاهر الحياة السائدة فيها، ومن ذلك إبراز العدوان واحتدام التنافس ومظاهر الأبهة واستخدام القوة وسواها مما قد يجعل الفرد يعتقد أنها أساليب مطلوبة في التعامل مع الآخرين[٣٣] وبنفس الوقت يستطيع الإنسان من خلالها أن يحافظ على مكانته فهي إذن تضفي (أي الثقافة) على الحياة السائدة فيها أسلوبها بحيث يسهل على الفرد أن يميز بين الثقافات المختلفة حتى إننا بدأنا نكون صورًا نمطية عن الثقافات بناءً على أساليبها وتوجهاتها السائدة فيها.

غير أن ثقافة المجتمع التي تعرض على شاشة التلفزيون ليست كافية في

استثارة العدوان فحسب، بل إن المناخ الأسري الذي يعيش في كنفه الطفل قد ينمي عنده مشاهدة العنف، فقد أشارت بعض الدراسات إلى أن العلاقة بين مشاهدة العنف وعدم تشجيع الأطفال على العدوان قد وصلت إلى الصفر[٣٤] بينما حدث العكس إذ ظهر هناك علاقة بين مشاهدة الأطفال للعنف وتشجيع الأسر للسلوك العدواني[٣٥] كما أن الأطفال الذين يتعرضون إلى سخط الآباء وتسلطهم يشاهدون التلفزيون أكثر من أقرانهم الذين يتعرضون إلى معاملة حسنة من والديهم[٣٦].

كذلك وجد أن الأطفال الذين يعيشون في أسر صغيرة الحجم يشاهدون التلفزيون أكثر من أولئك الذي يعيشون في أسر كبيرة الحجم[٣٧].

حيث إن الأسرة الصغيرة الحجم لا توفر للطفل فرصة المشاركة في الكلام أو في نشاطات اللعب؛ مما يجد نفسه معزولًا فيكثر من المشاهدة التلفزيونية علّه أن يجد فيها الراحة والتسلية.

٤- العمر ومعدل المشاهدة التلفزيونية

لقد بات واضحًا أن معدل المشاهدة التلفزيونية يتأثر إلى حدٍّ كبير بعمر الفرد وما يهمنا هنا: هو التوصل إلى معدل الساعات التي يصرفها الطفل أثناء مشاهدته لبرامج التلفزيون؛ ليتسنَّى لنا استنتاج الآثار السلبية المترتبة عن زيادة معدل المشاهدة هذه، ولو تتبعنا المرحلة العمرية التي تبدأ فيها المشاهدة التلفزيونية لوجدنا أن سن (١.٥-٢.٥) هي المرحلة العمرية التي تبتدأ فيها المشاهدة التلفزيونية[٣٨] ولا نستطيع في هذه المرحلة أن نحدد معدل المشاهدة بسبب أن الطفل لا يجد متعة وتسلية بهذه البرامج بل هو يتمتع بالألوان الزاهية وحركة الصورة فقط وهي لحظات أو دقائق ثم ينصرف إلى نشاط آخر؛ وعلى العموم تشير بعض الدراسات إلى أن الطفل في سن الثالثة قد يقضي مدة زمنية تصل إلى (٤٥) دقيقة يوميًّا في المشاهدة التلفزيونية[٣٩] وتزداد

هذه المدة في مرحلة (٣-٥) سنوات إذ تصل إلى ساعتين ونصف الساعة يوميًّا[٤٠] ثم يأخذ معدل المشاهدة في الزيادة في المرحلة العمرية الواقعة بين (٦-١٤) سنة إلى أكثر من ثلاث ساعات[٤١].

ويبدأ هذا المعدل بالانخفاض في المرحلة العمرية اللاحقة إذ يصل إلى ساعتين ونصف الساعة[٤٢].

ويبدو أن هناك إجماعًا حول معدل المشاهدة تبعًا للمراحل العمرية بيد أن الزيادة عن هذه المعدلات قد يكون محرضًا على العدوان؛ فقد وصلت معدلات المشاهدة كما تشير بعض الدراسات إلى أكثر من خمس ساعات يوميًّا[٤٣].

وهنا تكمن- الخطورة أي زيادة معدلات المشاهدة- فكيف تؤثر هذه الزيادة في استثارة السلوك العدواني؟

نقول: إن الأطفال الذين تقل أعمارهم عن (١٢) سنة هم أكثر تأثرًا بالنماذج التي تعرض على شاشة التلفزيون[٤٤]، وسبب ذلك أن زيادة معدلات المشاهدة قد تضعف مستوى الحكم الخلقي لدى الأطفال، لا سيما أن الأخلاق من وجهة نظر التعلم الاجتماعي هي مقاومة الإغراء[٤٥]، بمعنى أن الأطفال الذين يشاهدون نماذج عدوانية ويتعرضون إليها باستمرار من المحتمل أن يقلدوا تصرفاتها وأساليبها في حل الصراع إزاء موقف معين أو مشكلة معينة؛ لأن هؤلاء، أي الأطفال هم الآن في مرحلة تكوين مجموعة معايير خلقية، وبما أن هذه المعايير تتكون عن طريق تقليد وملاحظة سلوك الوالدين؛ فإن ذلك بالطبع لن يتم إلا بزيادة الصلة بين الطفل ووالديه.

أما عند انقطاع الصلة بين الطفل والوالدين -وهنا نقصد بالانقطاع، غياب التفاعل بين الاثنين والذي ينطوي علاوة على الدفء العاطفي،

التوجيه والإرشاد- على اعتبار أن التلفزيون قد أثر على عملية التفاعل الاجتماعي بين الطرفين؛ بسبب زيادة عدد الساعات التي تصرف في المشاهدة فإن النتيجة ستكون البحث عن نموذج بديل؛ لتشكيل معاييره الخلقية، وبذلك فإنه يجد في النموذج التلفزيوني قدوة له.

٥- المستوى الاجتماعي- الاقتصادي للطفل

تشير بعض الأدبيات أن المشاهدة التلفزيونية تتأثر بالمستوى الاجتماعي- الاقتصادي للأفراد[٤٦] على اعتبار أن لكل مستوى من المستويات الاجتماعية- الاقتصادية له تفضيلاته واهتماماته، وهذه الاهتمامات قد تنعكس في معدلات المشاهدة.

وقد تبين أن معدلات المشاهدة تزداد لدى أفراد الطبقة الدنيا[٤٧]، وهذا يعود إلى طبيعة النشاطات التي يمارسها الأفراد في كل طبقة من الطبقات الاجتماعية. واستنادًا إلى ذلك فإن أطفال الطبقة الدنيا يكثرون من المشاهدة التلفزيونية؛ بسبب ضيق المساحات المحددة للعب وقلة الأماكن الترفيهية، فضلًا عن أن ممارسة النشاطات الترفيهية تتطلب تكاليف تفوق إمكانياتهم المالية.

٦- التحصيل الدراسي للطفل

تشير بعض الدراسات إلى وجود علاقة بين طول المشاهدة التلفزيونية والتحصيل الدراسي للتلاميذ[٤٨] حيث إن الزيادة في المشاهدة يرافقها نقصان في التحصيل الدراسي، وهو أمر طبيعي إذ إن التحصيل الدراسي يتطلب وقتًا وجهدًا من التلميذ بدرجة كافية، واستنادًا إلى منطق هذه العلاقة فإن التلميذ الذي يصرف وقتًا كبيرًا على المشاهدة التلفزيونية يشعر بالتعب والإنهاك، وحتى ولو توفر لديه بعض الوقت لأغراض المطالعة فإنه سوف يطالع ما هو مطلوب منه على عجلٍ ودون تركيز.

ولهذا نجد أن التلاميذ الذين يكثرون من المشاهدة التلفزيونية يكونون عادة من ذوي التحصيل الدراسي المتدني.

٧- خصائص شخصية الطفل

تشير الدراسات إلى أن الأفراد الذين يفضلون مشاهدة البرامج العنيفة يكونون أميل إلى العدوان[٤٩] حيث يصبح العدوان نمطًا سلوكيًّا سائدًا يميزهم عن غيرهم؛ والسبب في ذلك أن هؤلاء يجدون في هذا النوع من البرامج المتعة، والتسلية، لا سيما من الأطفال والمراهقين وهم يشاهدون البطل ينجز أعمالًا تتسم بالبطولة والإقدام والشجاعة، ومثل هذه الأعمال البطولية تمثل أحلامًا يسعون إليها في هذه المرحلة من العمر فالطفل أو المراهق يتمنى أن يكون البطل المنقذ الذي يدخل مدينة ما أو منطقة ما فيخلص أهلها من جسور الظلم، وينشر العدل بينها.

كذلك لوحظ أن الأطفال الذين يصبح توافقهم الشخصي والاجتماعي سيئًا يكثرون من المشاهدة التلفزيونية[٥٠] وبخاصة تلك التي تنطوي على برامج العنف، والجريمة، والإثارة؛ لغرض التحرر من عالم الكبار المليء بالنواهي، والأوامر، والقيود، والشعور بالأمن[٥١] والتخفيف من المعاناة التي يتعرضون إليها، وعدم الإحساس بالنبذ الاجتماعي من الأقران؛ وبذلك تصبح عملية الإكثار من المشاهدة التلفزيونية حيلة هروبية يلجأ إليها الطفل كلَّما شعر بعدم الانتماء إلى جماعته وعدم تقبل والديه له والإحساس بالتحرر من قيودهما وأوامرهما التي أخذت تشعره بعدم الأهمية؛ ولهذا السبب فهو يرى أن نمذجة شخصيات التلفزيون ربما تحقق له التوافق على المستوى الشخصي والاجتماعي.

٨- ذكاء الطفل

لا بد من الإشارة هنا إلى أن الأطفال الأذكياء هم أقل اهتمامًا

بالتلفزيون[٥٢] وربما يفسر هذا سبب انخفاض معدلات المشاهدة لديهم مقارنة بالأطفال الأقل ذكاءً.

إن هؤلاء لا يجدون المتعة أو التسلية في متابعة برامج التلفزيون، كما لا يجدون فيها تحديًا يستثير قدراتهم العقلية بل يجدون فيها ما يبعث على الملل والسأم فضلًا عن أن الأطفال الأذكياء ليس لديهم وقتٌ كافٍ لمتابعة برامج التلفزيون؛ لأنهم لم يجدوا فيها ما يشبع اهتماماتهم؛ الأمر الذي يؤدي إلى تقليل ساعات المشاهدة بدرجة ملحوظة.

وبعد هذا العرض للاتجاهات الفكرية والمتغيرات السببية للمشاهدة التلفزيونية نتساءل: أي المتغيرات يعد محرضًا على السلوك العدواني من خلال المشاهدة التلفزيونية؟

في الحقيقة لم يكن هناك متغير واحد بعينه يعد محرضًا على السلوك العدواني؛ لأن الظاهرة في العلوم الإنسانية هي ظاهرة معقدة وليس من السهل تفسيرها على أساس عامل سببي واحد؛ بل تُفسَّر على أساس مجموعة عوامل سببية ويسمى الاتجاه الذي يأخذ في التفسير مجموعة من المتغيرات بالاتجاه التفاعلي؛ فهو يرى أن الظاهرة الإنسانية لا تُفسَّر بعامل واحد بل تُفسَّر بمجموعة عوامل.

وعلى هذا الأساس فإن المشاهدة التلفزيونية تؤثر عليها متغيرات متعددة؛ وبتفاعل هذه المتغيرات مع بعضها من الممكن أن تحدث الأثر المطلوب.

ولكن كيف يحدث هذا الأثر؟

من المعروف أن وسائل الإعلام المرئية لا تغير اتجاهات الأفراد ومعتقداتهم بشكل مباشر؛ بل إن التغيير يحدث في الاتجاهات والمعتقدات بشكل غير مباشر، بمعنى أن عرض الرسالة الإقناعية على الجمهور المتلقي

سوف لا تغير من اتجاهاتهم بشكل مباشر؛ بل إن هذه الوسائل الإعلامية سوف تعمل على تهيئة الجمهور المتلقي للرسالة الإقناعية؛ وهذا في الواقع يعتمد على خصائص الرسالة الإقناعية من حيث جاذبيتها، واحتوائها على معلومات دقيقة، والابتعاد عن التناقض في عرض الرسالة وغيرها.

وعندما تكون الرسالة الإقناعية بهذه المواصفات، عند ذاك من الممكن أن تهيئ الجمهور المتلقي لها؛ إذن الجمهور المتلقي لا يغير من اتجاهاته بمجرد عرض الرسالة الإقناعية بل إنه يتهيأ لتقبل هذه الرسالة وذلك من خلال زيادة مشاهدة العدوان لفترات طويلة؛ مما يؤدي إلى تقليل حساسيته للقسوة[٥٣] والضرب، والعنف، وبمرور الوقت يجد هؤلاء أنفسهم غير مبالين لمشاهد القتل والضرب؛ حيث يألفون عالم التلفزيون الذي يعج بهذه الأحداث المنفرة، والتي تثير الاشمئزاز شريطة أن تسبق مشاهدة العدوان على التلفزيون المتغيرات التي تحرض على السلوك العدواني.

استنادًا إلى ذلك نقترح بعض التوصيات لتقليل استثارة التلفزيون للسلوك العدواني:

١- منع عرض البرامج التي تتسم بطابع العنف والجريمة، ولو أن هذه التوصية لا تفي بالغرض المطلوب؛ لأن الطفل بإمكانه أن يشاهد هذه البرامج من مصادر أخرى كالفيديو، والشبكات التلفزيونية الأخرى.

غير أننا إلى جانب ذلك نؤكد على مسألة مقاومة الإغراء وهذا ينشأ من خلال الضمير فضلًا عن جعل الطفل يستدخل المعايير المقبولة اجتماعيًّا وينبذ المحرمات والممنوعات .

٢- من الضروري أن تتبع الأسرة أسلوبًا في التنشئة تؤكد فيه عدم المغالاة في تأكيد ذكورة الذكر؛ لأن ذلك قد ينمِّي لديه السلوك العدواني.

٣- يجب مراقبة الطفل منذ الأيام الأولى لمشاهدته التلفزيون فإن زادت مشاهدته للتلفزيون فعلى الأسرة أن تتدخل بوسائل تنطوي على الاهتمام به ورعايته والتعرف على اهتماماته، وأن تجد له السبيل للخروج من جلوسه الطويل أمام شاشة التلفزيون.

٤- التوسع في إقامة الأماكن الترفيهية وبخاصة الحدائق العامة التي تحتوي على بعض معدات اللعب؛ لكي يقضي فيها الطفل بعض الوقت مع أقرانه؛ وبهذا فإننا قد مكنا الطفل من أن يكون متوافقًا مع نفسه ومع غيره فضلًا عن تصريف الطاقة الزائدة لديه، وأحيانًا يستخدم الأطفال هذه الأماكن لأغراض المطالعة فضلًا عن ممارسة اللعب فيها.

٥- لا ننسى أن الأطفال ينمذجون شخصيات معلميهم الذين يظهرون سلوكًا دافئًا وودِّيًا.

وجدير بنا أن متوجه في عملية الإرشاد والتوجيه إلى هؤلاء شريطة أن يكونوا قادرين على إرشاد الطفل وتوجيهه وكسب ثقته.

الهوامش

(1) Atkin son, R.l. and et al, introduction to psychology (Sandiego: Harcourt Brace Jovanoich publishers, 1990) P. 452.

(2) Banaura, A. The role of modeling Processes in Personality. development in: snadowsky, A. M. child and adolescent.
development: laboratory- Field Relation ship. (New York: The Free Press, 1973) P. 161- 164.

(3) Ibid, P. 161- 164.

(4) Pervin, L. A current controversies and issues in personality (New York: John Wiley and sons, 1978). P. 76.

(5) Ibid, P. 76.

(6) Ibid, P. 77.

(7) Ibid, P. 82- 83.

(8) Baum, A. and et al, social Psychology (New York: Random House, 1985). P. 245.

(9) Perbin, 1978, Ibid, p.82-- 83.

(10) Tedeschi, J.T. and et al, Aggression and the use of coercive power.
Journal of social issues, No, 1. vol, 33, 1977, p. 115. Donnerstein, E. and Barrett, g. effects of erotic stimuli on male aggression.
Toward females. Journal of personality and social psychology. No. 2 . Vol. 36, 1978, p. 185.

(11) Pervin, 1978, Ibid, p. 69.

(12) Fesh bach, S. Aggression. In: Mussen, p.H. (Ed) Carmichaels manual of child psychology 3rd ed .vol2 (new York: John wily and sons, inc, 1970).p. 234.

(13) pervin,1978 ibid,p69.

(14) ibid, p. 69- 70.

(15) Hoffman , L. and et al, developmental psychology. 5th ed (New York:

Kandom House, 1988), p. 264.

(16) Ibid. p. 264.

(17) Ibid. p 264.

(18) atkinson and et al,. 1990. Ibid, p. 431.

(19) Hurlock, E,B. Child development, 6th ed. (Auck land: McGraw- Hill book company, 1978) p.331.

(20) Ibid, p. 311.

(21) Bandura, A. and Waters, R social learning and personality development. (New York: Holt, Rinehatrrand Winston, 1963). P. 60.

(22) Baumand et al, 1985, Ibid, p. 245.

(23) Ibid, p. 240.

(٢٤) الكتاني إدريس، الآثار السلبية لمشاهدة العنف والإجرام في التلفزيون والسينما على سلوك الطفل، المجلة العربية للدراسات الأمنية العدد (٥) (الرياض: المركز العربي للدراسات الأمنية ١٩٨٧)ص ٦٨.

(٢٥) المصدر السابق ص ٦٨.

(26) Arkinson and et al, 1990. Ibid. p. 431.

(27) Ibid. p. 431.

(٢٨) نور الدين محمد عباس، العلاقة المحتملة للتلفزيون والسينما بالانحراف، المجلة العربية للدراسات الأمنية العدد (١٨) (الرياض: المركز العربي للدراسات الأمنية ١٩٩٤). ص ١٧.

(29) Cliford, w. crime control in Japan. (Toronto: Iexington books, 1976), p.2.

(30) Gage, N.1. and D.C. Berliner. Educational psychology, 4th ed. (Boston: Houghton Mifflin Company, 1988) p. 174.

Segall, M.H. aggression in global perspective: A Research strategy. In: A.p. Goldstein and M.H. segall (Eds). Aggression in global perspective. (New York: pergarmon press, 1983). P. 12.

(31) Mutrray, J.P. Television and Violence: implication of the surgionm generals Research program. American Psychology. 2an ed.

(32) Lindgren, H,C. An introduction to social Psychology, 2nd ed. (New York: Jhon Wiley, 1973). P. 207.

(٣٣) الدوري عدنان، أثر برامج العنف والجريمة على الناشئة: دراسة نظرية تحليلية (الكويت: مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٧) ص ١٦.

(34) Raven, B,H, and J.Z. Rubin, sons, 1983).p. 300.

(35) Ibid, p. 300.

(٣٦) عدوان نواف، الأطفال وبرامج التلفزيون، البحوث والعدد (١٨) (بغداد: المركز العربي لبحوث المستمعين والمشاهدين، ١٩٨٦)ص ٢٧.

(٣٧) بو جلال عبد الله، الشباب الجزائري وبرامج التلفزيون الأجنبي، دارسة ميدانية بحوث، العدد (٣) الجزائر جامعة الجزائر ١٩٩٥) ص ٤١.

(38) Murray, 1973. Ibid, p. 474.

Anderson, D.R. and Levin, S.R. Young Children's attention to sesame street, child development, vol. 47, No, 3. 1976, p. 807

(٣٩) شرام لبور وآخرون، التلفزيون وأثره في حياة أطفالنا، ترجمة زكريا سيد حسن. (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٥)ص ٥٢.

(٤٠) الرفاعي محمد خليل، التلفزيون والطفل، المستقبل العربي العدد (١٧٧) (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٣) ص ١٠٩ - ١١٠.

(٤١) شرام وآخرون ١٩٦٥ المصدر السابق- ص ٥٧ - ٥٨.

(٤٢) شرام وآخرون ١٩٦٥ المصدر السابق ص ٥٧ - ٥٨.

(٤٣) وطفة على . أثر متغيري الجنس والمستوى التعليمي للأب على الفترة الزمنية التي يقضيها الشباب في مشاهدة التلفزيون في محافظة درعا. مؤتة للبحوث والدراسات العدد (٣). (موتة: جامعة مؤتة ١٩٩٤) ص: ٢٦ عدوان ١٩٨٦ المصدر السابق ص: ١٨.

(44) Myers, D.G. psychology, 1st ed. (New Yorkk: Worth Publishers,inc. (1986).p. 561.

(45) O. conor.j. and Wrightsman, L. Moral development of Motives. In: L.S. Wrightman. Social psychology in seventies. (California: Brooks/ cole Publishing company Monterey, 1972) p. 118.

(46) Buss, A. psychology: Man in prospective. (New York: John willey and sons, inc, 1973) p. 437.

(47) Hurlock, 1978, Ibid, p. 309.

(48) Hoffman and et al. 1988, Ibid. p. 265. Hurkock, 1978, Ibid, p. 309. Mcleod, J. and et al. Adolescents, parents and T.V Use: self report and other- report measures from wisconsn sample. In: cater, D. and Strickland, s. the viplence and the child (New York: Russell sage foundation, 1975) p.53.

صالح قاسم، حسين علاقة طول مشاهدة التلفزيون وطبيعة برامجه بالتحصيل المدرسي لطلبة الصف السادس الابتدائي (بغداد: جامعة بغداد رسالة ماجستير غير منشورة (١٩٧٥) ص ٧٧.

(49) Raven and Rubin, 1983, Ibid, P. 300.

(50) Hurlock, 1978, Ibid, p. 309.

٥١- شرام وآخرون ١٩٦٥ المصدر السابق ص ١٩٥.

(52) Hurlock, 1978, Ibid, p. 309.

كرم جان جبران، التلفزيون والأطفال ط١.
(بيروت: دار الجيل ١٩٨٨) ص ٦٧.

(53)−Myers. 1986, Ibid. p. 561.

الآخر بوصفه فكرًا وافدًا من الفضاء

الآثار النفسية الناجمة عن التعرض للقنوات الفضائية

أ- سايكولوجية الخطاب في القنوات الفضائية

لقد استحوذت البرامج التلفزيونية الوافدة من الفضاء على اهتمام الناس، وبخاصة أولئك الذين بإمكانهم التقاطها بسهولة ويسر؛ إذ إن هذه البرامج قد تمكنت من جذب الانتباه إلى رسائلها، وهو ما جعل أفراد الأسرة عمومًا يتحدثون عنها باهتمام بالغ، وهو ما يعني حقيقة أن النظام الاجتماعي سيعاني من بعض المشكلات في الأيام المقبلة، لعل من أبرزها: عدم قدرة هذا النظام على الاتصال بأفراده؛ وهذا يعود بطبيعة الحال إلى انشغالهم بالبرامج الوافدة من الفضاء، الأمر الذي سيؤدي إلى عدم إيصال الرسائل الاتصالية، أو بمعنى آخر أن عدم التعرض إلى الرسائل الصادرة عن النظام الاجتماعي سيؤدي إلى خلق هوة بين الأفراد عمومًا والنظام الاجتماعي.

كما أن البث الوافد من الفضاء سيؤدي على العموم إلى اضطراب النظام الاتصالي، وهذا يعني أن خطاب النظام الاجتماعي سيصبح في خبر كان، أو لنقل على وجه التحديد: سوف لا يبلغ حدود المراد، الأمر الذي يجعل النظام الاجتماعي في محنة دائمة، ألا وهي: صعوبة الاتصال بأفراده، وما يهمنا هنا، التعرف على حقيقة الخطاب التلفزيوني في برامج البث الوافد من الفضاء، وكيف يجذب الانتباه إليه.

في هذه الدراسة سيقتصر حديثنا على الفقرتين الآتيتين:

- سايكولوجية الخطاب في برامج البث الوافد من الفضاء.
- تخطيط الاتصال.

سايكولوجية الخطاب في برامج البث الوافد من الفضاء.

من الممكن أن نفهم الخطاب Discourse على أنه نوع من اللغة، ولما كان كذلك فهو يراد به تبليغ الآخر رسالة معينة بمضمون معين. فإذا كان الخطاب النصي يراد به إيصال فكرة معينة من المرسل (الكاتب) إلى المتلقي (القارئ)، فإن الخطاب الاتصالي عمومًا يراد به إيصال فكرة أو مجموعة أفكار من المرسل (محطة تلفزيونية أو إذاعية) إلى المتلقي وهو الجمهور عادة على اختلاف مستوياته الثقافية والاجتماعية.

من هنا يصبح الخطاب في ميدان الاتصال، عملية يراد بها تبليغ الجمهور رسائل معينة، بقصد تشكيل اتجاهاتهم استنادًا إلى الطروحات الفكرية لهذه الوسيلة من الاتصال أو تلك.

وعلى ذلك نقول: إن الخطاب الاتصالي هو ألفاظ، أو نصوص، أو إشارات صوتية وحركية تصدر عن المرسل بقصد تبليغ المتلقي بفكرة معينة، أو بتوجيهات وإرشادات معينة، يهدف من ورائها إلى تشكيل الاتجاهات بطريقة تتناسب وتفصيلات مرسل الرسالة.

وعلى وفق هذا المنطق يصبح الخطاب الصادر من القنوات التلفزيونية الوافدة من الفضاء: سواء بالصوت، أو الصورة، أو الحركة، أو الموسيقى، رسائل إقناعية تهدف إلى تبليغ رسالة ما تنطوي على مضمون معين.

إن الحديث عن الجوانب النفسية لهذا الخطاب، وكيف يؤثر في المتلقي، ويشده إليه، وهو حديث في واقع الأمر عن سايكولوجية هذا الخطاب أو كما أسلفنا سايكولوجية الخطاب في البث الوافد من الفضاء، ولكي نلم بالجوانب النفسية لهذا الخطاب، فإننا سنتحدث عن عناصر الاتصال ودورها في إيصال الخطاب إلى الجمهور وهي:

١- المرسل .
٢- الرسالة.
٣- المتلقي.
٤- الوسيلة.
٥- التأثير[١].

١- المرسل

قد يكون المرسل شخصًا، أو جماعة، أو مؤسسة، ولكي تكون رسالته الإقناعية مؤثرة وفعالة في تشكيل معتقدات الأفراد، لا بد أن يكون على قدر من المصداقية والثقة والجاذبية [٢]. وهذا يعني: أن مصداقية المرسل ستزيد من ثقة الجمهور في كل الرسائل التي يقوم بإيصالها، وعلى العكس من ذلك، فإن التناقض الذي يحمله المرسل في الرسائل الإقناعية سيزيد من النفور وعدم التصديق به، وهو ما يؤدي إلى صرف الانتباه عنه إلى مرسلين آخرين أكثر مصداقية، والجاذبية التي يجب أن يتمتع بها المرسل، نعني بها هنا الجاذبية البدنية، أو الجاذبية في مجال عرض الأفكار، أو الطلاقة اللفظية.

والحقيقة أن برامج البث الفضائي قد أخذت تؤثر تأثيرًا بينًا في ثقافة الأفراد وآرائهم، فهي تعرض مقدم البرامج على مستوى من الجاذبية، وقادر على إدارة الحديث، فضلًا عن طلاقته اللفظية، الأمر الذي يجعل من هؤلاء المقدمين للبرامج محببين إلى المشاهدين؛ والأهم من ذلك أن هذه البرامج أخذت تنتقي من الجنسين مقدمًا ينسجم مع طبيعتها، فالبرنامج الذي ينطوي على مرح وتسلية، تنتقي له امرأة جميلة تتمتع بطلاقة لغوية، وتتسم شخصيتها بالانبساط؛ لكي تتمكن من التفاعل مع البرنامج بشكل كفء، وهو ما يجعل المشاهدين مشدودين إليها طيلة مدة البث.

أما إذا كان البرنامج ينطوي على أخبار وتحليلات سياسية، فيتم اختيار

المقدم للبرنامج بكونه يتمتع بطلاقة لغوية، ومعلومات وافية عن القضايا التي يروج لها، فضلًا عن إسناد معلوماته بتقارير من المراسلين في مواقع الأحداث مع اقتران هذه التقارير بالصور، ويؤدي ذلك إلى تكوين استجابات تنطوي على التفضيل والإعجاب.

وهكذا مع بقية البرامج المتنوعة التي تعالج قضايا مختلفة، إذ ينتقى لها المقدم الذي يكون على قدر من الجاذبية والمصداقية.

ومما له دلالة في هذا الصدد، أن مرسل الرسالة يجب أن تكون له القدرة على إثارة مستمعيه أو مشاهديه[٣] إثارة تصل إلى حد التوحد معه، وأن ينال إعجابهم، والأهم من ذلك، أن يكون مخلصًا في القضية التي يحملها إليهم[٤]. عند ذلك ستتكون انطباعات تتسم بالتفضيل، والإعجاب، والانبهار، الأمر الذي يجعل الأفراد حريصين على متابعته في الأوقات المحددة.

٢- الرسالة

يعد محتوى الرسالة، العامل الثاني في العملية الإقناعية، ولكي يكون محتواها فعالًا وقادرًا على التأثير في الأفراد، لا بد أن يكون مقنعًا، ولا يتعارض مع المنطق[٥]. وكلما كان محتوى الرسالة مقنعًا وينسجم مع المنطق، كان ذلك أدعى إلى التأثير.

وعلى ذلك فإن توفر الإقناع في الرسالة، يعد شرطًا أساسيًّا، فإذا لم يتوفر هذا الشرط، فقدت الرسالة أهدافها، وبالتالي لن تتمكن من الوصول إلى الجمهور، كذلك يجب أن تكون الرسالة واضحة ومفهومة[٦]، لا يجد الفرد صعوبة في فهمها، أو في حل رموزها.

كما ينبغي أن يكون محتوى الرسالة متفقًا تمام الاتفاق مع الظروف الحالية[٧] عند بثها.

بعبارة أخرى: إن اختيار الظروف التي توجه بها الرسالة إلى الجمهور يعد أحد شروط الإقناع، وإلا فإن القائمين على الرسالة إن لم يحسنوا اختيار الظروف المناسبة لها؛ سيكون حالها حال الرسائل الأخرى، التي نتعرض لها يوميًّا دون أن تؤثر فينا.

ويبدو أن البث الوافد من الفضاء، ستكون رسائله الموجهة على درجة عالية من الإقناع، ومراعية الظروف التي تتوجه بها، الأمر الذي يخشى منه أن يحدث تغييرًا في الحياة الاجتماعية، ربما لا تحمد عواقبه.

٣- المتلقي

إن المتلقي هو الطرف المستهدف في العملية الإقناعية، إذ هو الذي يتلقي الرسالة بقصد تشكيل اتجاهاته، ولكي تكون الرسالة الموجهة إليه فعالة في الإقناع، وقادرة على تشكيل اتجاهاته، لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها، ليتسنى للقائمين على الرسالة مخاطبته باللغة التي يفهمها، ومن ثم انتقاء الأساليب الإقناعية المناسبة، ثم بعد ذلك يشرع القائمون عليها بمعرفة الخصائص النفسية لكل فئة من الفئات التي يتكون منها مجتمع الرسالة.

وبطبيعة الحال فإن لغة الخطاب الموجهة إلى فئة اجتماعية تعاني من القهر، تختلف عن لغة الخطاب الموجهة إلى فئة اجتماعية لا تعاني قهرًا ولا حرمانًا، وبرامج البث الفضائي تخاطب هذه الفئات الاجتماعية بما ينسجم وخصوصياتها الثقافية.

وعلى سبيل المثال: إن الفئة المهمشة، وتلك التي تشكو من البطالة ستستجيب للرسائل الإقناعية بمجرد عرض بعض الصور المقترنة بلغة تتناسب مع حالة القلق والسأم التي أخذت تعاني منها، والفئة المثقفة ستتأثر

بالرسائل التي تنطوي على الأدلة والبراهين المقترنة بالوثائق والتقارير، وهكذا فإن القائمين على الرسالة الإقناعية سيأخذون بنظر الاعتبار خصائص المتلقي الاجتماعية والنفسية؛ ليتسنى لهم تشكيل الاتجاهات بما يتناسب، وأيدلوجية البث الوافد.

٤- الوسيلة

تعد الوسيلة الاتصالية التي يتم من خلالها إيصال الرسالة الإقناعية، عاملًا مهمًّا ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في عملية الإقناع، فالإقناع لا يتم إلا باختيار وسيلة اتصالية مناسبة، أو أن الرسالة الإقناعية لا تصل إلى الجمهور المستهدف إلا بتيسر الوسيلة المناسبة القادرة على جذب الانتباه.

وعلى ذلك، فإن قوة الإقناع تختلف باختلاف الوسائل الاتصالية، فالصحف والراديو أقل إقناعًا من التلفزيون، بسبب أن الصحيفة تحتوي على الكلمة المقروءة فقط في مخاطبة الجمهور.

والراديو يخاطب جمهوره عن طريق الصوت، أي: إن المرسل لا يمكن مشاهدته، ولا التعرف عليه، وعلى هذا الأساس يعد الراديو أقل جاذبية من التلفزيون، في حين أن التلفزيون يحتوي على: الصوت والصورة والألوان والحركة، الأمر الذي يشعر الفرد بالارتياح وهو يتابع برامجه.

وبالنظر لاحتواء التلفزيون على الصوت والصورة والحركة، فإن الفرد أثناء المشاهد يجد نفسه متفاعلاً مع برامجه ومشدودًا إليها طيلة مدة البث، لا سيما تلك البرامج المحببة إليه.

وتبعًا لذلك، فإن القنوات الفضائية، قد اتخذت من التلفزيون أداة أو وسيلة فعالة في إيصال برامجها إلى مختلف الفئات الاجتماعية، على اعتبار أن الصحافة، أو الإذاعة لها جمهور من فئة اجتماعية معينة يتابع رسائلها الإقناعية،

بينما التلفزيون باستطاعة كل الفئات الاجتماعية على اختلاف مستوياتها الثقافية أن تتابع رسائله الإقناعية طيلة مدة البث.

وطالما أن البرامج التلفزيونية الوافدة من الفضاء تتمتع بقدر من الجاذبية، فمن المتوقع أن تصرف الانتباه عن متابعة البرامج الوطنية، وبالتالي ستتخذ من غياب التخطيط الاتصالي، وافتقار البرامج الوطنية إلى الجاذبية، الفرصة في أن تشيع نموذج الحياة الغربية الذي تصوره على أنه المدينة الفاضلة أو اليوتوبيا Utopia ما انفك الأفراد في العالم الثالث يحلمون بها.

٥- التأثير

لا بد من القول هنا: إن التلفزيون بوصفه وسيلة اتصالية جذابة لا تحدث تغييرًا في اتجاهات الأفراد بصورة مباشرة، بل إن التغيير الذي يمكن أن يحدثه، عادة يكون بصورة غير مباشرة، بسبب أن هذه الوسيلة الاتصالية ستعمد إلى تهيئة الجمهور لاستقبال الرسالة، شريطة أن تكون هذه الرسالة على قدر من الجاذبية، وعند ذاك من الممكن القول، إن الجمهور قد تهيأ لاستقبالها.

إن الرسالة الاتصالية التي تكون على قدر من الجاذبية لا تكون فعالة في إحداث التغيير المطلوب، ما لم تصاحبها جملة من المتغيرات التي تتفاعل بدورها مع المشاهدة، والمتغيرات المطلوب تفاعلها مع المشاهدة من قبيل: العمر، والجنس، والذكاء، وخصائص الشخصية، والمستوى الاجتماعي - الاقتصادي وأساليب التنشئة والمناخ الثقافي السائد[٨].

فلقد وجد أن الأفراد الذين هم بأعمار صغيرة أكثر تأثرًا بالمشاهدة من أولئك الذين هم بأعمار كبيرة[٩]. وربما يعود سبب ذلك إلى محدودية الخبرات، وقلة محصولهم المعرفي، الأمر الذي يجعلهم أكثر تأثرًا من غيرهم، والأفراد الأذكياء أقل تأثرًا بمحتوى البرامج من غيرهم الأقل ذكاء[١٠]؛ وذلك بسبب

أن الزيادة في الذكاء ستجعل الفرد أكثر تمييزًا وإدراكًا للمنبهات التي يتعرض لها، وهو ما يمنعه من أن يسلم بسهولة ويسر للقضايا والتحليلات التي تعرض عليه، بل يناقشها، ويقدم بعض المسوغات التي يجد فيها ما يناقض أراءه، ومعتقداته.

كما وجد أن الذكور أكثر تأثرًا بما يشاهدونه على شاشة التلفزيون[١١]؛ لأن الانطباعات التي يكونه كلا الجنسين عن الأحداث والأشياء تكون متطابقة مع الأدوار المتوقعة لكل منهما في المجتمع، هذا يعني: أن كلًّا منهما يدرك الأشياء والأحداث بطريقة تنسجم مع دوره الجنسي، كما تنسجم مع الصور النمطية السائدة عن الجنس في الثقافة، وخصائص الشخصية هي الأخرى مؤثرة في المشاهدة، فالأشخاص الذين يعانون من اضطرابات نفسية ربما يكونون أدعى إلى التأثر بالبرامج الوافدة من أولئك الذين لديهم اضطرابات أقل، أو أن تاريخهم الشخصي يكاد يخلو من هذه الاضطرابات؛ بسبب أن الاضطرابات النفسية تهيئ الفرد لتقبل بعض الإيحاءات، وهو ما يجعل عملية الإقناع لا تواجه أية صعوبات، فكل ما يعرض على الشاشة التلفزيونية هو من وجهة نظر هؤلاء سليم، وينبغي أن لا تكون ثمة محاججة.

كما أن الأفراد الذين يتمتعون بدرجات عالية من التسلط، هم أميل إلى التأثر بالمشاهدة، فضلًا عن أن الانحرافات التي تظهر في سلوك هؤلاء بين الآونة والأخرى، والتي تكون الظروف الاجتماعية مهيأة في العادة لظهورها، أو قل: إن ظروف البث ربما تكون بمثابة المحرضات لإظهارها وإبرازها في الوسط الاجتماعي.

والمستوى الاجتماعي – الاقتصادي من المتغيرات التي تسهم في عملية التأثر بالمشاهدة، إذ ليس كل الأفراد في المستويات الاجتماعية- الاقتصادية الثلاثة يتأثرون بالمشاهدة، بل إن هناك مستوى معينًا أميل إلى التأثر بالمشاهدة

من المستويات الأخرى. على أن الدراسات تؤكد، أن أفراد المستوى الاجتماعي –الاقتصادي المتدني هم أكثر تأثرًا بما يشاهدونه من برامج على شاشة التلفزيون[١٢].

وربما يعود سبب ذلك إلى أن هؤلاء أكثر حرمانًا من الناحية الاقتصادية، فضلًا عن قلة الأماكن الترفيهية المتوفرة في بيئتهم الاجتماعية، وهو ما يجعل التلفزيون أداة ترفيهية أكثر من غيرها، كما أن التلفزيون أصبح غير مكلف؛ بسبب امتلاك كل أسرة جهاز تلفزيون، وبإمكانهم مشاهدته ساعة يشاءون، ولا بد من الإشارة في هذا السياق، إلى أن نسبة لا يستهان بها من أفراد المستوى الاجتماعي – الاقتصادي المتوسط، ستكون أكثر تأثرًا بما تشاهده من برامج؛ لأن هذه النسبة أخذت ظروفها المعيشية تتماثل مع ظروف المعيشة لأفراد المستوى المتدني.

وهنا تكمن الخطورة! إذ إن المجتمع العربي يشتمل على أغلبية من المستوى المتدني والمتوسط، ولما كانت هذه الأغلبية تعاني من ضنك الحياة، ومن صعوباتها، وليس هنالك من الوسائل والأساليب الكافية للتخفيف من ضغوطها وأعبائها، فمن السهل على البرامج الوافدة أن تشكل الاتجاهات بما يتناسب وتوجهاتها.

كذلك فإن أساليب التنشئة الوالدية، تعد من العوامل المؤثرة في المشاهدة، فلو أجرينا مسحًا لأساليب التنشئة الوالدية السائدة في المجتمع العربي، نجد أنها على العموم تتسم بالتسلط والتهديد والوعيد، غير أننا لو أمعنا النظر فيها، نجد أنها تتأثر بالمستوى الاجتماعي-الاقتصادي، إذ إن أساليب التنشئة لدى الآباء والأمهات من المستوى الاجتماعي- الاقتصادي المتدني تميل نحو التسلط والعقاب.

بينما نجدها لدى آباء وأمهات المستوى الاجتماعي- الاقتصادي الراقي تميل نحو التسامح والاعتدال[١٣].

وكما قلنا سابقًا: إن نسبة الأفراد في المستوى الاجتماعي- الاقتصادي المتدني في المجتمع العربي تكاد تكون الغالبة، وهذا يعني صراحة وضمنًا أن ثمة نسبة كبيرة من الأفراد مهيأة للتأثر بالمشاهدة، بغض النظر عن الموضوعات التي ستطرحها برامج البث الوافد.

إن المناخ الثقافي السائد في المجتمع العربي، يعد من الظروف المهيئة للتأثر بالبرامج الوافدة، فالمجتمع العربي تهيأ أكثر من أي وقت مضى لاستقبال هذه البرامج، ومن ثم التأثر بها، نذكر من هذه الظروف: الأزمات الاقتصادية التي تمر بها بعض الأقطار العربية، وما نجم عنها من ارتفاع في الأسعار، وتدن في المستوى المعيشي للأفراد، كما أن بعض هذه الأقطار يعاني مما يسمى اليوم بعسكرة المجتمع، أي: إضفاء التعبئة العسكرية على قطاعات المجتمع كافة، وثمة معاناة من ضغوط الحياة التي أرهقت الفرد وأثرت تأثيرًا بينًا على أدائه، ولغة الخطاب في وسائل الاتصال الجمعية في معظم البلاد العربية، لغة تبعث على السأم، والملل، ولا تتناسب مع مستجدات العصر، إذ هي لغة تتناسب مع عصر الخطابة المنبرية، ولا تبلغ حدود المراد[١٤].

ويبدو واضحًا، أن للمشاهدة التلفزيونية أثرًا في سلوك الفرد، ولكن هذا الأثر لا يظهر جليًّا إلا بتوفر بعض الخصائص النفسية والاجتماعية التي تتفاعل بدورها لإحداث الأثر المطلوب؛ إذ إن الخطاب التلفزيوني في برامج البث الوافد من الفضاء، هو خطاب ينطوي على قدر عال من الجاذبية، ومن المتوقع في الأيام المقبلة أن يستحوذ على اهتمامات الأفراد وتفضيلاتهم، فضلاً عن أنه يشبع حاجاتهم؛ ولأنه كذلك فقد يخشى منه، كما تحدثنا في موضوع التأثير أن يشكل النسق القيمي للأفراد بطريقة مخالفة للنسق القيمي السائد،

ولعل ذلك يعود إلى أن النسق القيمي هو الذي يوجه ويحرك سلوك الفرد.

وهذا معناه أن النسق القيمي هو الذي يقرر نوع السلوك، وعلى ذلك، فإن شيوع نمط معين من السلوك مرتبط بكل تأكيد بالنسق القيمي السائد.

نقول: إن الخطاب التلفزيوني في برامج البث الوافد من الفضاء، من المحتمل أن يشكل النسق القيمي بما ينسجم وأيدلوجية القائمين على برامج البث، هذا يعني: أننا بصدد طرح تصورات، أو توقعات عما سيئول إليه النسق القيمي أثناء التعرض للبرامج التلفزيونية الوافدة من الفضاء، على الرغم من الصعوبات التي تكتنف عملية التنبؤ بالظواهر الإنسانية عمومًا؛ وهذا يعود بطبيعة الحال إلى الظاهرة الإنسانية نفسها، بكونها معقدة، ويصعب السيطرة عليها، أو التحكم فيها، فضلًا عن أن هناك متغيرات كثيرة تساهم في تشكيلها، ومع ذلك، لا بد من التنبؤ عما سيحدث، أو ما ستئول إليه الأمور، بعد أن حققت العلوم الإنسانية في السنوات الأخيرة تطورات كبيرة في ميدان التنبؤ بظواهرها، وعلى هذا الأساس. فإن جمع البيانات والوقائع عن هذه الظاهرة تعيننا على التنبؤ.

وإذن فإن التنبؤ عما سيحدث هو غايتنا في هذه الدراسة؛ استنادًا إلى أن التنبؤ هو أحد أدوات البحث العلمي، وتبعًا لهذا الرأي، فإن علينا أن نتنبأ بأن أهداف البرامج الوافدة ستكون على النحو الآتي:

١- تهيئة الظروف المناسبة لتقبل حالة التغيير في النسق القيمي، وبطبيعة الحال، فإن ذلك يقتضي إحداث تغيير في بنية المجتمع؛ لكي يكون الأفراد على استعداد لتقبل النسق القيمي المستحدث أو الوافد، والحقيقة أن الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي يشهدها المجتمع العربي مهيأة لإحداث التغيير في النسق القيمي، بمعنى آخر: إن الفرد مهيأ الآن

لإدخال نسق قيمي مستحدث، أو وافد، وجعله النسق القيمي السائد لديه؛ دون أن يشعر بحالة عدم الارتياح.

٢- بث برامج تتناول الحياة الأمريكية بطريقة إيجابية، بحيث تتمكن من إحداث حالة من الإعجاب لدى الفرد، وهذا معناه أن هذه الخطوة يراد بها تكوين اتجاهات إيجابية تنطوي على تفضيل الحياة الأمريكية.

٣- بعد أن يتعرض الفرد إلى برامج البث الوافد من الفضاء، ومشاهدة ما يتمتع به الإنسان في العالم الغربي، وفي أمريكا على وجه الخصوص، يبدأ بمقارنة أوضاعه الحالية في مجتمعه مع أوضاع أولئك الذين يعيشون في العالم الغربي، وقد تؤدي هذه المقارنة إلى إحداث التناشز المعرفي Dissonance Cognitive إذ تحدث عملية صراع بين الأفكار التي يتعرض لها الفرد، وبين معتقداته عن الواقع الذي يعيش فيه، وهي الغاية التي يسعى إليها القائمون على البث الوافد، فهم يريدون أن يصلوا بالفرد في مختلف المجتمعات إلى حالة المقارنة؛ لأن بدء الفرد بعملية المقارنة بين أحواله وأحوال الأفراد الآخرين في العالم الغربي، تعني أنه انتهى إلى تبني وجهة نظر مفادها: إن العالم الغربي هو العالم الذي يتمتع فيه الإنسان بالحرية وهو عالم يضمن له حقوقه، فضلاً عن كونه عالمًا يتحرر فيه الإنسان من الخوف، بعبارة أخرى: سيجد نفسه في نهاية المطاف، وسط عالم من الرحمة والرأفة.

٤- بعد أن تشيع وجهة نظر تؤكد أن العالم الغربي عالم رحمة ورأفة، يبدأ الفرد بعد ذلك بتمني الحياة الغربية، وتمني أن يكون الغرب حاكمًا يدير شئون البلاد.

٥- طالما أن الفرد تقبل فكرة أن يكون الغرب حاكمًا يدير شئون البلاد،

وكون نمط الحياة الغربية أو الأمريكية البديل المناسب لنمط الحياة السائدة في المجتمع، من الممكن أن يكون هناك تخلٍّ عن المعتقدات الدينية التي يعتقد بها، إذ إنها لم تقدم له شيئًا طيلة اعتقاده بها؛ بل على العكس من ذلك إنها أخذت تسوغ حالة الظلم والغبن بطريقة تنم عن كونها امتحانًا سماويًّا واختبار صبر الصابرين، ومعتقدات مثل هذه تسوغ للظالمين ظلمهم لا تنفع أن تكون معتقدًا يعتقد بها الفرد.

والحقيقة: إن ذلك أخطر خطوة في برامج البث الفضائي؛ لو اتبعت على هذا النحو، فإن تمكنت هذه البرامج من إضعاف المعتقدات الدينية سنكون على شفا كارثة مجتمعية، وهو التخلي عن معتقداتنا الدينية، عند ذاك سنصبح مجتمعًا بلا خصوصية ثقافية.

ومما له دلالة في هذا الصدد، أن خصوصية المجتمع العربي تكمن في التمسك بالدين الإسلامي، وبالتراث العربي الذي يشكل الآن معلمًا من المعالم العربية، مثلما تشكل الحداثة والتقنية معلمًا من معالم الحضارة الغربية، وإضعاف الجانب الديني لدى الإنسان العربي، وإظهار التراث العربي بمظهر الضعف، وعدم الجدوى منه، والتشكيك فيه، كفيل بإضعاف الخصوصية الثقافية، ومن ثم من السهل عولمتها مع الثقافات الأخرى.

من ذلك يتضح أن البث الوافد من الفضاء سيضعنا في حيرة من أمرنا بعد فترة من الزمن، وهي بالتأكيد ليست فترة طويلة، ولكي لا نبقى في حيرة من أمرنا، علينا من الآن البدء بعملية تخطيط للبرامج الوطنية؛ لكي نقلل من آثاره المحتملة، إن لم نقل العمل على إزالة هذه الآثار، أما السبيل إلى ذلك، فإن الفقرة الآتية ستوضح آلية التخطيط.

تخطيط الاتصال التلفزيوني

لكي تكون عملية الاتصال التلفزيوني فعالة وقادرة على إيصال الرسالة الاتصالية، ثمة عناصر ضرورية يجب مراعاتها في عملية التخطيط الاتصالي:

١- تحديد الهدف.

٢- تحديد الجمهور.

٣- اختيار الوسيلة.

٤- تحديد الظروف المناسبة.

٥- التقويم[١٥].

والآن نتناول كلًّا من هذه العناصر على حدة، وكيف توظف في عملية التخطيط الاتصالي.

١- تحديد الهدف

من الضروري أن يحدد الهدف؛ لضمان فاعلية الاتصال، وبما أن هدفنا هنا هو إيجاد بدائل منافسة للبث الوافد من الفضاء، فإن هذا يقتضي تهيئة البرامج التي تتمتع بقدر من الجاذبية، والتي تجعل المشاهد يتابعها دون أن يبحث عن بديل آخر من البرامج التي تشيع فيها التسلية والمتعة.

٢- تحديد الجمهور

لا بد من تحديد الفئات الاجتماعية المستهدفة في البث التلفزيوني الوافد من الفضاء، وعلى الأغلب إن الفئات الاجتماعية المستهدفة هي الأطفال والمراهقون والشباب؛ ولأجل أن نجعل هذه الفئات تتابع البرامج الوطنية علينا أن نتعرف على خصائصها النفسية والاجتماعية، وكذلك تشخيص الحاجات غير المشبعة لديها والضغوط التي تعاني منها، ثم نحدد بعد ذلك نوع البرامج التي تتناسب وتفضيلاتها والأوقات المناسبة عند بثها.

٣- اختيار الوسيلة المناسبة

بما أن البث الوافد من الفضاء هو بث برامج تلفزيونية، فإن الوسيلة المناسبة أمامنا عند تخطيطِ برامجنا الوطنية، هو التركيز على التلفزيون حصرًا، ومحاولة التنوع في عرض برامجه، بحيث تكون محببة لكل الفئات الاجتماعية.

وبطبيعة الحال إن عرض البرامج المتنوعة سيكون بمثابة محاولة لإشباع الحاجات النفسية للصغار والكبار، هذا يعني: أن البرامج الوطنية ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار من الآن فصاعدًا تحديث برامجها وتنوعها بما يتناسب، ورغبات الجمهور وتفضيلاته لكي لا نجعله من الآن متشوقًا لمشاهدة البرامج الوافدة.

٤- اختيار الظروف المناسبة

إن الظروف الحالية التي يمر بها المجتمع العربي عمومًا، تجعلنا نقول: إنها مناسبة للبث الوافد، طالما لم تكن هناك بارقة أمل تلوح في الأفق بإمكانية حل الأزمات أو تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، الأمر الذي سيمنح البرامج الوافدة الفرصة في الهيمنة والاستحواذ على تفضيلات الفرد عمومًا.

وإذن فإن الظروف الحالية تحفزنا على إعادة النظر في البرامج الوطنية ومحاولة الاستفادة من البرامج الوافدة؛ لغرض جعل البرامج الوطنية أكثر تفضيلًا لدى المشاهد.

٥- التقويم

نعني بالتقويم هنا، هو عملية إصدار حكم ينطوي على رصد الجوانب الإيجابية والسلبية للبرامج التلفزيونية التي بثت في فترة محددة؛ وذلك باستطلاع آراء الجمهور المشاهد لهذه البرامج، وبطبيعة الحال، فإن البرامج التي نالت استحسان الجمهور تعطي مؤشرًا إيجابيًّا بأنها برامج مفضلة، وأن

هناك إقبالًا عليها، ويحدث العكس مع البرامج التي لم تتمكن من إحداث حالة من الرضا والقبول لدى الجمهور المشاهد، فإنها تعطي بكل تأكيد مؤشرًا سلبيًّا، وعلى القائمين بشئون البرامج التلفزيونية أن يعدلوا فيها أو أن يعمدوا إلى إلغائها بالمرة في الفترة التلفزيونية المقبلة. وهكذا دواليك يتمكن التلفزيون من جذب الانتباه إلى برامجه.

الهوامـــش

(١) شكري عبد المجيد تكنولوجيا الاتصال الجديد في إنتاج البرامج في الراديو والتلفزيون، ط١. القاهرة: دار الفكر العربي ١٩٩٦)، ص٥٥.

(2) Morgan, C.T. and etal. Introduction to psychology 7th ed, (Newyork: MCGraw-Hill Book company, 1986).

P. 396, Secord, P.F and Back Man . C.W. Social psychology, 2nd ed. (New York: Mcgraw-Hill Book company, 1974), p.92.

(٣) إبراهيم عبد الستار، أسس علم النفس (الرياض: دار المريخ للنشر، ١٩٨٧)، ص٢٠٠.

(٤) المصدر السابق، ص٢٠٠.

(٥) المصدر السابق، ص١٩٩.

(٦) حسين سمير محمد، الإعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام (القاهرة: عالم الكتب) ١٩٨٤، ص١٦٧.

(٧) المصدر السابق، ١٦٧.

(٨) حسن محمود شمال، المشاهدة التلفزيونية وإشكالية استثارة السلوك العدواني، آفاق عربية، العدد (١١-١٢) (بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٩٨) ص٦٤.

(9) Myers, D.G Psychology, 1st ed. (New York: Worth publishers, inc, 1986) p. 561.

(10) Hurlock, E.B. child Development, 6th ed. (Auck land: McGraw-Hill Book company, 1978) p. 309.

(11) Lindgren, H.C. Anintroduction to social psychology 2nd ed. (New Yorkk: John Wiley, 1973) p.207.

(12) Hurlock, 1978. l bid , p.309.

(١٣) استبيتة دلال ملحس وعبدوني كامل، اتجاهات الأبناء نحو أنماط تنشئة الآباء وعلاقتها بمتغيرات الجنس، والمستوى التعليمي، ودخل الأسرة بالمرحلة الثانوية

بعمان الكبرى الأول. دراسات، العدد(٢) (عمان: الجامعة الأردنية) ١٩٩٧، ص٣٥٩.

(١٤) محمود شمال حسن، بث برامجي أم تشكيل نسق قيمي: دراسة الأنساق القيمية المترتبة على البث الفضائي في المجتمع العربي، شئون عربية، (القاهرة: الأمانة العامة لجامعة الدول العربية) العدد (٩٧) (آذار – مارس ١٩٩٩)، ص٥٥.

(١٥) الهيتي هادي نعمان، الاتصال والتغير الثقافي (بغداد: دار الحرية للطباعة، سلسلة الموسوعة الصغيرة، ١٩٧٨)، ص٢٦-٢٨.

ب- الآثار النفسية المترتبة
على الخطاب الوافد عبر القنوات الفضائية

المقدمة

لا يزال الحديث عن البث الوافد من الفضاء الشغل الشاغل لكل من المهتمين بميدان: السياسة، والاقتصاد، والإعلام، واللغة، والاجتماع، وعلم النفس، ولا نغالي إذا قلنا: إن هذه الظاهرة الإعلامية الجديدة والغريبة على المجتمعات البشرية قد استثارت همم الباحثين، وحفزت مراكز البحث العلمي إلى التحري عن أساليب مواجهة آثارها السلبية، وكذلك العمل على جعل البرامج الوطنية محببة للجمهور أو منافسة لها.

وما أحوجنا اليوم - نحن العرب - إلى أن نتخذ لأنفسنا بعض الأساليب والتدابير اللازمة لتقليل الآثار المحتملة للبث، إذا لم نجد في الواقع على مستوى مؤسساتنا الاجتماعية، والإعلامية الاهتمام بهذه الظاهرة، وهنا يؤشر واحد من احتمالين:

إما أن مؤسساتنا الاجتماعية والإعلامية لم تفهم بعد الآثار المحتملة للبث الوافد، أو أننا عاجزون عن إيجاد بعض الأساليب اللازمة للتقليل من آثارها.

وآية ذلك: أن البث الوافد على الرغم من استخدامه تقنيات متقدمة جدًّا وأجهزة اتصال متطورة جدًّا بإمكاننا أن نواجه تلك الظاهرة ببعض الأساليب التي تستند إلى ثقافتنا السائدة ولكي لا نطيل الحديث عما أعدته لنا مؤسساتنا من أساليب مواجهة دعونا نستعرض فرضيتين أساسيتين لازالتا تستقطبان اهتمام الباحثين والمتخصصين في كل ميدان من ميادين المعرفة، ومن خلال استعراض الكتابات والدراسات حول هذه الظاهرة يمكن طرحها على النحو التالي الآتي:

الفرضية الأولى: تؤكد أن البث الفضائي هو أسلوب يراد به تشكيل النسق القيمي، بينما تؤكد الفرضية الثانية أن البث الفضائي هو أسلوب فعال في تحقيق الاتصال بين الشعوب.

ولأجل اختيار هاتين الفرضيتين، سوف تقتصر مناقشتنا في الدراسة الحالية على الفقرات الآتية:

- الدلائل التي تشير إلى أن البث الوافد هو أسلوب يراد به تشكيل النسق القيمي.
- وجهة النظر التي تستند إليها الآثار المترتبة على البث الوافد من الفضاء.
- الآثار النفسية والاجتماعية المترتبة على البث الوافد من الفضاء.
- الآفاق المستقبلية للبث الوافد من الفضاء في المجتمع العربي.

الدلائل التي تشير إلى أن البث الوافد هو أسلوب يراد به تشكيل النسق القيمي

نجد من الضروري هنا، الإشارة إلى أن الدراسة الحالية تتبنى الفرضية الأولى التي تؤكد، أن البث الفضائي هو أسلوب يراد به تشكيل النسق القيمي، وعلى هذا الأساس فهي لا ترى في البث الفضائي (والمقصود به في هذه الدراسة: البث الوافد من المحطات الفضائية الغربية والأمريكية حصرًا).

محاولة لتقريب الشعوب وتقليص الفجوة الحضارية بينهما، بل إنها ترى: أن البث هو الأسلوب لتخريب ثقافات الشعوب وتهميش خصوصياتها الوطنية، وثمة أدلة تشير إلى صحة هذه الفرضية، لعل من أبرزها:

١- لو أجرينا مسحًا للجنسيات المهيمنة على وسائل الاتصال السمعية والبصرية، لوجدنا أن الولايات المتحدة تتصدر قائمة الدول المهيمنة على وسائل الاتصال، إذ تتحكم بنسبة ٦٥٪ [١] من هذه الوسائل في العالم أجمع. هذا يعني أن العالم كله يمتلك نسبة مقدارها ٣٥٪، وبهذا الخصوص يشير (بريجنسكي) مستشار الرئيس الأمريكي (جيمي كارتر)

للأمن القومي إلى (أن على الولايات المتحدة الأمريكية وهي تمتلك هذه النسبة الكبيرة من السيطرة على الإعلام الدولي أن تقدم للعالم أجمع نموذجًا كونيًّا للحداثة بمعنى نشر القيم والمبادئ الأمريكية)[٢].

٢- أثناء ولاية الرئيس الأمريكي (نكسون)، صدر له كتاب بعنوان (١٩٩٩: نصر بلا حرب) أشار فيه على ضرورة بث القيم الأمريكية إذا ما أرادت أمريكا أن تكون زعيمة العالم[٣].

٣- أن الشركات الإعلامية وبتوجيه من حكوماتها، أخذت تبث رسائل إقناعية محتواها: تفضيل أيدلوجية النظام الرأسمالي وإشاعة أنماط استهلاكية فضلاً عن أساليب الحياة الشائعة في الغرب[٤] لغرض تكوين حالة من الانبهار والإعجاب بالحضارة الغربية من جانب، ومحاولة إضعاف الأعراف والتقاليد السائدة في الثقافات التي تستهدفها الرسائل الإقناعية، ومن ثم تشكيل نسق قيمي على غرار ما هو موجود في الثقافة الغربية.

٤- ومما يؤكد صحة القرضية التي انطلقنا منها، أنه في عام ١٩٨٨م، أصدر وزير الثقافة في مجموعة السوق الأوربية المشتركة بيانًا حول (الفضاء السمعي والبصري الأوربي)، وتضمن بيانه التحذير من خطر التهميش الذي تتعرض له الثقافات الأوربية في عالم توحده ثقافيًّا الصور والرسائل الأمريكية[٥] التي أخذت تبث عبر وسائل الاتصال المتطورة، وهو الأمر الذي سيؤدي بأوربا إلى إضعاف تأثيرها في العالم[٦] عمومًا، وعدم قدرة وسائلها الإقناعية من الوصول إلى الأفراد بهدف تشكيل صور نمطية محببة عن الثقافات الأوربية.

٥- لقد صدر في عام ١٩٩٠ كتاب لأحد الكتاب الفرنسيين بعنوان (أوربا والتحدي الثقافي)، أشار فيه الكاتب كما يذكر الجابري في كتابه (المسألة الثقافية)، إن تعدد اللغات في أوربا سيشكل عائقًا في مجالات التعاون[٧] الإعلامي؛ وذلك لأن تعددية اللغات سيتطلب مجهودًا كبيرًا في ميدان

الترجمة، مما يجعل منها عملية شاقة وغير مجدية، فضلًا عن كونها لا تستطيع تهيئة البرامج المطلوبة في أوقاتها المناسبة، وفي فرنسا فإن موضوع البث الفضائي لم يناقش بجدية؛ بسبب أن أوروبا لا بد أن تنتقي لها لغة مشتركة تخاطب بها جمهورها، والمسئولون في فرنسا على يقين أن اللغة الإنجليزية ستكون اللغة المشتركة في القنوات الفضائية الأوربية، وهو الأمر الذي يجعل اللغة الفرنسية تفقد منزلتها العالمية ومن ثم إضعاف التباين بين الثقافات الأوربية، ومن ثم العمل على أمركة أوربا، أي: إضفاء نمط الحياة الأمريكية عليها[٨]، والواقع إن إشاعة الثقافة الأمريكية بحكم اللغة وإمكانيات الاتصال المتقدمة سيؤدي إلى تهميش الثقافات الأوربية، وتحقيق الهدف من الاتصال عبر الفضاء ألا وهو تشكيل المجتمعات البشرية وفقًا للمنظور الأمريكي.

٦- إن الولايات المتحدة الأمريكية، ومنذ فترة زمنية تحاول أن تجعل نموذج الحياة الأمريكية، النموذج البديل للمجتمع البشري، ولتحقيق هذا الهدف، أخذت تتبع بعض الأساليب التي من شأنها إشاعة النموذج الأمريكي في المجتمعات قاطبة، ومنها ما أشيع في الآونة الأخيرة عن مشروع العولمة في ميدان الاقتصاد والمال[٩]، لتخطي الدولة، وإلغاء حدودها، وعندئذ يكون التعامل مع المؤسسات والشركات حصرًا.

وبذلك فإن هذه الشركات والمؤسسات تبدأ بفرض قوانينها ونظمها الخاصة متجاوزة قوانين، ونظم الدولة المعنية. وبمقتضى هذا الإجراء يتمكن القائمون على صناعة القرار في الولايات المتحدة من فرض النموذج البديل، وهذا يتطلب إلغاء الخصوصية الوطنية والثقافية، وكأن المسئولين عن العولمة أرادوا أن يكون العالم بأسره أمة واحدة، أو دولة واحدة يدير شئونها القائمون في واشنطن.

والواقع أن هذا الإجراء - أي العولمة - لا يتحقق كما يرى القائمون عليه

ما لم تسبقه جملة من الإجراءات التي تهيئ له مناخًا مناسبًا لتقبل أيدلوجية العولمة والترويج لها، ومن بين هذه الإجراءات: استخدام وسائل الاتصال المتطورة لتحقيق هدفها المنشود.

من ذلك نصل إلى استنتاج مفاده: أن البث الفضائي هو أحد الأساليب التي يراد بها تشكيل سلوك الأفراد في المجتمعات البشرية قاطبة بغض النظر عن كونها تنتمي إلى العالم الغربي، أو إلى العالم الشرقي، إذ يطرح من خلاله نموذج الحياة الأمريكية بوصفه النموذج البديل، وهو لا يهدف إلى تحقيق الاتصال السريع، ونقل حضارة العالم المتقدم، بل يهدف إلى إلغاء الخصوصية الثقافية ليتسنى للقائمين على برامج البث طرح أيدلوجية العولمة، ومن ثم تشكيل سلوك الأفراد باتجاه تفضيل هذه الأيدلوجية ، وما يتبعها من إجراءات.

نخلص من هذا الحديث إلى إثارة التساؤلات من قبيل:
لماذا كل هذا التأكيد على النسق القيمي؟ وما علاقة النسق القيمي بالإعجاب والانبهار بالحضارة الغربية؟ وهل يحقق إحداث تغيير في النسق القيمي أهداف العولمة؟

هذه التساؤلات سنجيب عليها بالقول: إن القيم هي أحكام تقويمية للسلوك، والمقصود بالأحكام التقويمية هو أن الفرد يتصرف في المواقف المختلفة وفقًا للقيم التي يحملها ويؤمن بها؛ وذلك لأن القيم هي التي توجه السلوك وتقرر نوعه.

وبذلك فإننا نتوقع من الشخص الملتزم دينيًا أن لا يتصرف خلافًا لمعتقداته وقيمه، بينما نتوقع من الشخص المنحرف أن يتصرف استنادًا إلى النسق القيمي الذي يحمله، ولهذا لا غرابة من أن تصدر عنه أنماط من

السلوك المضادة للمجتمع، فالنسق القيمي إذن، هو الذي يوجه السلوك، ويقرر نوعه إن كان مقبولًا على صعيد المجتمع أو غير مقبول.

وهذا يعني: أن السلوك يتشكل استنادًا إلى النسق القيمي فإحداث أي تغيير من النسق القيمي، سيترتب عليه تشكيل السلوك، إذ تنقلب تصرفات الفرد من نمط سلوكي معين إلى نمط سلوكي آخر.

ولهذا السبب أخذ منظرو أيدلوجية العولمة بالتركيز على النسق القيمي؛ لما له من تأثير في النمط السلوكي؛ ولأن هدف العولمة هو تشكيل أفراد المجتمعات وفقًا للمنظور الأمريكي، فإن الأمر يتطلب تغيير النسق القيمي؛ ليتسنى للقائمين على تلك الأيدلوجية التحكم بالمجتمعات قاطبة.

وجهة النظر التي تستند إليها الآثار المترتبة على البث الوافد من الفضاء

لقد تأكد لنا بما لا يدع مجالًا للشك أن البث الوافد من الفضاء لا يهدف إلى نشر التسلية والترفيه، بل يهدف إلى تشكيل أنماط سلوكية معينة تتناسب وأهداف أيدلوجية العولمة، وطالما أن الهدف منه هو تشكيل السلوك، وحمل الفرد على الاعتقاد بوجهات نظر معينة فمن المؤكد أنه سيترتب عليه بعض الآثار النفسية والاجتماعية استنادًا إلى نظرية التعلم الاجتماعي التي وضعها (باندورا ووللترز).

والسبب الذي يجعلنا نتبنى وجهة نظر التعلم الاجتماعي دون غيرها من وجهات النظر النفسية الأخرى هو أن مُسَلَّمات النظرية تؤكد أن السلوك الاجتماعي يتم اكتسابه من خلال ملاحظة الآخرين، وهم يظهرون استجابات مختلفة[١٠]، قد تكون بحالة تقديم مساعدة، أو نصيحة، أو مشورة، أو مناصرة للنظام الاجتماعي، إلى غير ذلك من أشكال السلوك المقبول اجتماعيًّا.

وقد تكون بحالة سلوك غير مقبول اجتماعيًّا مثل: العزوف عن تقديم المساعدة أو النصيحة، أو المشورة، أو المخالفة للنظام، هذا يعني، أن النظرية تعول كثيرا على المشاهدة أو الملاحظة على أساس أن الكثير من أنماط السلوك الاجتماعي ناتجة عن التعلم، فبمجرد مشاهدة النموذج Model وهو يصدر استجابات مختلفة، فقد يعيد الفرد تلك الاستجابات بعد فترة من الزمن، أو أنه يتأثر بها؛ ومن ثم يصدر سلوكًا على غرار تلك الاستجابات التي تعرض لها.

وقد أشارت بعض الدراسات التي أجريت حول التعلم من خلال المشاهدة أو الملاحظة إلى أن النمذجة Modeling لكي تتم لا بد من توفر بعض الخصائص في سلوك النموذج لعل من أبرزها:

أن يكون النموذج المتمثل بشخصية المرسل في البرامج على قدر من المصداقية والثقة والجاذبية[١١]، وهذا يعني: أن مصداقية المرسل ستزيد من ثقة الجمهور به في كل الرسائل التي سيقوم بإيصالها. وعلى العكس من ذلك، فإن التناقض الذي يحمله النموذج في الرسائل الإقناعية سيزيد من النفور، وعدم التصديق به، مما يؤدي على صرف الانتباه عنه إلى نماذج أخرى أكثر مصداقية، والجاذبية التي يجب أن يتمتع بها النموذج، نعني بها هنا: الجاذبية البدنية، أو الجاذبية في مجال الطلاقة اللفظية، أو طريقة عرض الأفكار.

والحقيقة: أن برامج البث الفضائي قد أخذت تؤثر تأثيرًا بينًا في ثقافة الأفراد وآرائهم، فهي تعرض مقدم البرنامج – وهو يمثل هنا النموذج – على مستوى من الجاذبية، وقادرًا على إدارة الحديث، فضلًا عن طلاقته اللفظية. مما يجعل من هؤلاء محببين إلى المشاهدين، والأهم من ذلك، أن هذه البرامج أخذت تنتقي من الجنسين مقدمًا ينسجم مع طبيعتها.

ومن هنا يأتي الاهتمام بجنس النموذج كونه أحد العوامل المؤثرة في جذب الانتباه، فالبرنامج الذي ينطوي على مرح وتسلية تنتقي له امرأة جميلة تتمتع بطلاقة لغوية، وتتسم شخصيتها بالانبساط لكي تتمكن من التفاعل مع البرنامج بشكل كفء، مما يجعل المشاهدين مشدودين إليها طوال فترة البث، أما إذا كان البرنامج ينطوي على أخبار وتحليلات سياسية، فيتم اختيار المقدم للبرنامج من الذكور الذين يتمتعون بطلاقة لغوية، ولديهم معلومات وافية عن القضايا التي يروج لها، فضلا عن إسناد معلوماته بتقارير من المراسلين في مواقع الأحداث، مع اقتران هذه التقارير بالصور مما يؤدي إلى تكوين استجابات تنطوي على التفضيل والإعجاب، وما له دلالة في هذا الصدد.

إن مرسل الرسالة (النموذج) يجب أن تكون له القدرة على إثارة مستمعيه أو مشاهديه[١٢] بحيث ينال إعجابهم، والأهم من ذلك أن يكون مخلصًا في القضية التي يحملها إليهم[١٣] عند ذاك سيكون أدعى إلى الإعجاب به، ومن ثم تقليده، الأمر الذي يجعل الأفراد حريصين كل الحرص على متابعته في الأوقات المحددة بوصفه نموذجًا جذابًا.

إن البرامج الوافدة من الفضاء تحفل بالكثير من النماذج التي من الممكن أن تنال إعجاب الأفراد.

إذن ما الذي نستخلصه من وجهة نظر التعلم الاجتماعي بإزاء برامج البث الفضائي:

١ - إن مشاهدة الفرد للبرامج الوافدة من الفضاء سيؤدي بالتأكيد إلى تشكيل سلوكه بما يتناسب وأهداف العولمة، ولما كان الهدف من برامج البث هو تشكيل السلوك، فإن المشاهدة ستقرر نوع السلوك وسيكون في العادة التفضيل والإعجاب بالغرب والنفور من التخلف، ولا سيما النفور من

مجتمعات العالم الثالث.

٢- إن مشاهدة البرامج التي ينطوي عليها قدر كبير من التسلية والمتعة، ستضعف مقاومة الفرد لإغراءات المنبهات التي يتعرض إليها طوال فترة البث، وهذا يعني: أن الحكم الخلقي لدى الفرد سيضعف، ومن ثم سيكون أكثر تأثرًا بالإيحاءات، مما يجعله على استعداد لتقبل مضمون الأفكار المطروحة في البث.

٣- إن البرامج الوافدة من الفضاء ستبتعد كليًا عن طرح مشكلات الواقع الاجتماعي اليومي، ومما يزيد من ابتعادها عن الواقع الاجتماعي الذي يعيشه الفرد، أنها ستجعله منفرًا منه، وغير راغب فيه، عندما توفر له البديل المناسب لواقعه البائس؛ وذلك باصطناع عالم طوباوي ما انفك يحلم به، ولا سيما الإنسان في العالم الثالث، وعلى هذا سيتعلم بمرور الوقت محاكاة، وتقليد هذا العالم بمُثُلِه، وقِيَمه ومعاييره.

ورب سؤال يطرح نفسه هنا، هو:

هل ستؤثر المشاهدة في سلوك جميع الأفراد؟ أم أن الأمر يقتصر على بعضهم، وليس كلهم؟ إذا كان الأمر يقتصر على بعضهم وليس كلهم، فمن هؤلاء الأفراد؟ وما هي خصائصهم النفسية والاجتماعية؟

بادئ ذي بدء إن المشاهدة للبرامج الوافدة من الفضاء سوف لا تؤثر في سلوك جميع الأفراد، بل ستؤثر في سلوك بعضهم، وذلك يعود إلى جملة عوامل، لعل من أبرزها: عامل العمر والجنس والذكاء وخصائص الشخصية والمستوى الاجتماعي -الاقتصادي، وأساليب التنشئة الوالدية والمناخ الثقافي السائد[١٤].

فلقد وجد أن الأفراد الذين هم بأعمار صغيرة أكثر تأثرًا بالمشاهدة من

أولئك الذين هم بأعمار كبيرة[١٥]، وربما يعود سبب ذلك إلى محدودية الخبرات، وقلة محصولهم المعرفي، الأمر الذي يجعلهم أسرع تأثرًا من غيرهم.

والأفراد الأذكياء أقل تأثرًا بمحتوى البرامج من غيرهم الأقل ذكاء[١٦]، وذلك بسبب أن الزيادة في الذكاء ستجعل الفرد أكثر تمييزًا وإدراكًا للمنبهات التي يتعرض لها، مما يجعله لا يسلم بسهولة ويسر للقضايا والتحليلات التي تعرض عليه، بل يناقشها ويقدم بعض المسوغات التي يجد فيها ما يناقش آراءه ومعتقداته.

كما وجد أن الذكور أكثر تأثرًا بما يشاهدونه على شاشة التلفزيون[١٧] ؛ لأن الانطباعات التي يكونها كلا الجنسين عن الأحداث والأشياء تكون متطابقة مع الأدوار المتوقعة لكل منهما في المجتمع.

هذا يعني: أن كل منهما يدرك الأشياء والأحداث بطريقة تنسجم مع دوره الجنسي، كما تنسجم مع الصور النمطية السائدة عن الجنس في الثقافة، وخصائص الشخصية هي الأخرى مؤثرة في المشاهدة، فالأشخاص الذين يعانون من اضطرابات نفسية، ربما يكونون أدعى إلى التأثر بالبرامج الوافدة من أولئك الذين لديهم اضطرابات أقل، أو أن تاريخهم الشخصي يكاد يخلو من هذه الاضطرابات؛ بسبب أن الاضطرابات النفسية تهيئ الفرد لتقبل بعض الإيحاءات، مما يجعل عملية الإقناع لا تواجه أية صعوبات، فكل ما يعرض على الشاشة التلفزيونية هو من وجهة نظر هؤلاء سليم، وينبغي أن لا تكون ثمة محاججة.

كما أن الأفراد الذين يتمتعون بدرجات عالية من التسلط هم أميل إلى التأثر بالمشاهدة، فضلًا عن الانحرافات التي تظهر في سلوك هؤلاء بين الآونة والآخرى، والتي تكون الظروف الاجتماعية مهيأة في العادة لظهورها، أو قل:

إن ظروف البث ربما تكون بمثابة المحرضات لإظهارها، وإبرازها في الوسط الاجتماعي، والمستوى الاجتماعي- الاقتصادي من المتغيرات التي تسهم في عملية التأثر بالمشاهدة.

إذ ليس كل الأفراد في المستويات الاجتماعية- الاقتصادية الثلاثة يتأثرون بالمشاهدة، بل إن هناك مستوى معينًا أميل إلى التأثر بالمشاهدة من المستويات الأخرى، على أن الدراسات تؤكد، أن أفراد المستوى الاجتماعي – الاقتصادي المتدني هم أكثر تأثرًا بما يشاهدونه من برامج على شاشة التلفزيون[١٨].

وربما يعود ذلك إلى أن هؤلاء أكثر حرمانًا من الناحية الاقتصادية فضلا عن قلة الأماكن الترفيهية المتوفرة في بيئتهم الاجتماعية، مما يجعل التلفزيون أداة ترفيهية أكثر من غيرها.

كما أن هذه الأداة أي: التلفزيون أصبحت غير مكلفة، بسبب امتلاك كل أسرة على جهاز منه وبإمكانهم مشاهدته ساعة يشاءون، ولا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أن نسبة لا يستهان بها من أفراد المستوى الاجتماعي – الاقتصادي المتوسط ستكون أكثر تأثرًا بما تشاهده من برامج؛ لأن هذه النسبة أخذت ظروفها المعيشية تتماشى مع ظروف المعيشة لأفراد المستوى المتدني وهنا تكمن الخطورة.

إذ إن المجتمع العربي يشتمل على أغلبية من المستوى المتدني والمتوسط، ولما كانت هذه الأغلبية تعاني من ضنك الحياة، ومن صعوباتها، وليس هناك من الوسائل والأساليب الكافية للتخفيف من ضغوطها وأعبائها، فمن السهل على البرامج الوافدة أن تشكل الاتجاهات بما يتناسب وتوجهاتها.

وكذلك فإن أساليب التنشئة الوالدية تعد من العوامل المؤثرة في المشاهدة، فلو أجرينا مسحًا لأساليب التنشئة الوالدية السائدة في المجتمع

العربي، نجد أنها على العموم تتسم بالتسلط والتهديد والوعيد، غير أننا لو أمعنا النظر فيها، نجد أنها تتأثر بالمستوى الاجتماعي-الاقتصادي؛ إذ إن أساليب التنشئة الوالدية لدى الآباء والأمهات من المستوى الاجتماعي-الاقتصادي الراقي تميل نحو التسامح والاعتدال[١٩]، كما قلنا سابقًا.

إن نسبة الأفراد في المستوى الاجتماعي -الاقتصادي المتدني في المجتمع العربي يكاد يكون النسبة الغالبة، وهذا يعني صراحة وضمنًا، أن نسبة كبيرة من الأفراد مهيأة للتأثر بالمشاهدة بغض النظر عن الموضوعات التي ستطرحها برامج البث الوافد.

إن المناخ الثقافي السائد في المجتمع العربي يعد من الظروف المهيئة للتأثر بالبرامج الوافدة، فالمجتمع العربي الآن مهيأ أكثر من أي وقت مضى لاستقبال هذه البرامج، ومن ثم التأثر بها، نذكر من هذه الظروف:

الأزمات الاقتصادية التي تعصف بأحواله، فقد أسفر عنها ارتفاع معدلات التضخم، وتصاعد في الأسعار، وصعوبات في المعيشة، وتدني دخول الأفراد، وبخاصة من ذوي الدخل المحدود، وعدم قدرتهم على مواكبة الآثار السلبية لهذه المعدلات من التضخم.

كذلك إن بعض الأقطار العربية تفتقر إلى الاندماج الوطني، كما أن الحياة العربية تعاني مما يسمى اليوم بعسكرة المجتمع، أي: إن عملية إضفاء التعبئة العسكرية على قطاعات المجتمع كافة. وثمة معاناة من ضغوط الحياة التي أرهقت الفرد وأثرت تأثيرًا بينًا في أدائه، كما أن لغة الخطاب في وسائل الاتصال الجمعية في معظم البلاد العربية، لغة تبعث على السأم والملل، ولا تتناسب مع مستجدات العصر، إذ هي لغة تتناسب مع عصر الخطابة المنبرية، ولا تبلغ حدود المراد.

نخلص إلى القول: إن البرامج الوافدة من الفضاء ستعمل على تشكيل سلوك الأفراد بما يتناسب وتوجهاتها وأهدافها التي ترمي من ورائها، استنادًا إلى وجهة نظر التعلم الاجتماعي التي ترى أن سلوك الإنسان نتاج لعملية التعلم، وعلى ذلك فإن كل ما يشاهد على شاشة التلفزيون من برامج مثيرة ومسلية، ستجعل الأفراد يكتسبون أنماطًا معينة من السلوك تتناسب وطبيعة تلك البرامج.

الآثار النفسية والاجتماعية المترتبة على البث الوافد من الفضاء

انتهينا في الفقرة السابقة إلى أن البث الوافد تسنده وجهة نظر علمية، ألا وهي نظرية التعلم الاجتماعي، وقد استعرضنا من خلال منطلقاتها النظرية، الكيفية التي تفسر بها السلوك الاجتماعي، وخلصنا إلى نتيجة مفادها: إن مشاهدة النموذج تؤدي إلى اكتساب أنماط مختلفة من السلوك، وطالما أن البرامج الوافدة من الفضاء ستعمل على نمذجة سلوكنا، فمن الطبيعي أن يترتب على ذلك بعض الآثار النفسية والاجتماعية بعد أن تشيع على مستوى المجتمع، ويتمكن الفرد من التقاطها، لعل من أبرزها:

١ - إشاعة ثقافة الاستهلاك

من المفيد الإشارة إلى أن البث الوافد من الفضاء سيعمل على إشاعة ثقافة تتسم بالاستهلاك المفرط، وذلك من خلال عرض البرامج التي يشيع فيها نمط استهلاكي إلى حد البذخ.

إن إشاعة مثل هذا النمط الاستهلاكي، إنما يقصد منه إضعاف الإنتاج لدى أفراد المجتمع ومحاولة تعليمهم الاعتماد على الغير في توفير مستلزماتهم اليومية، وهذا معناه، أن يكون أفراد المجتمع عمومًا استهلاكيين أكثر من أن يكونوا منتجين، وبمرور الوقت ستصبح الاتكالية إحدى الخصائص المميزة لأفراد المجتمع، ومن ثم سينظرون إلى السلع الوطنية بسخرية وتهكم.

إن إشاعة مثل هذا النمط من الاستهلاك لا يؤثر فقط في عملية الإنتاج والتفكير بأحوال المجتمع ومشكلاته فحسب، بل هو يؤدي على تنمية أنماط استهلاكية لم تكن معروفة من قبل، مما يؤدي إلى زيادة الطلب على بعض السلع والبضائع، وسيكون الفرد منهمكًا من أجل إشباع حاجاته منها.

وكلما أشبع حاجة من سلعة ما، سيجد نفسه أمام سلع أخرى لم يشبع حاجاته منها؛ بسبب أن البرامج الوافدة التي ستعرض عليه كمًّا هائلًا من السلع الاستهلاكية التي تتمتع بقدر كبير من الجاذبية، إلى جانب أنها تمثل آخر صيحات الموضة، ولا سيما في مجال الملابس وأدوات الزينة، وهي في الوقت نفسه ستكون متنوعة تخدم المرأة والرجل والصغير والكبير، ومختلف الفئات العمرية، وبذلك ستتحول إلى مجتمع استهلاكي بمرور الوقت.

أما قضية التفكير بأحوال المجتمع ومشكلاته، فقد تصبح من القضايا الثانوية وليست لها أية أهمية تذكر انطلاقًا من أن المنبهات ذات الجاذبية العالية ستجذب الانتباه أكثر من تلك المنبهات الأقل جاذبية.

٢- إشاعة حالة من الإعجاب والانبهار بما تصنعه حضارة الغرب

إن حالة الإعجاب والانبهار بحضارة الغرب أو المجتمع الغربي لم تكن حالة غريبة على المجتمعات غير الغربية، بل إن حالة الإعجاب والانبهار كانت موجودة قبل أن يستأنف البث الفضائي برامجه، على المستوى العالمي، غير أن حالة الإعجاب يراد منها هنا، أن يكون الفرد منشدًّا إلى الغرب بكل ما يصنعه الإنسان هناك، هذا يعني: أن البث الوافد يجب أن يتناول الحياة الغربية بطريقة إيجابية بحيث تتمكن من إحداث حالة من الإعجاب لدى الفرد.

وبطبيعة الحال إن حالة الإعجاب هي لحمل الفرد على تكوين اتجاهات إيجابية تنطوي على تفضيل الحياة الغربية، وبعد أن يتعرض الفرد إلى برامج

البث الوافد من الفضاء، ومشاهدة ما يتمتع به الإنسان في العالم الغربي، وفي أمريكا على وجه الخصوص، يبدأ بمقارنة أوضاعه الحالية في مجتمعه مع أوضاع أولئك الذين يعيشون في العالم الغربي، وقد تؤدي هذه المقارنة إلى إحداث التناشز المعرفيCognitive Dissonance.

إذ تحدث عملية صراع بين الأفكار التي يتعرض لها الفرد وبين معتقداته عن الواقع الذي يعيش فيه، وهي الغاية المنشودة التي يسعى إليها القائمون على العولمة، فهم يريدون أن يصلوا بالفرد في مختلف المجتمعات إلى حالة المقارنة؛ لأن بدء الفرد بعملية المقارنة بين أحواله وأحوال الأفراد الآخرين في العالم الغربي، تعني أنه انتهى إلى تبنى وجهة نظر مفادها: (أن العالم الغربي هو العالم الذي يتمتع فيه الإنسان بالحرية، وهو عالم يضمن له حقوقه، فضلًا عن كونه عالمًا يتحرر فيه الإنسان من الخوف، بعبارة أخرى سيجد نفسه في نهاية المطاف في وسط عالم من الرحمة والرأفة، وبعد أن تشيع وجهة نظر تؤكد أن العالم الغربي عالم رحمة ورأفة، يبدأ الفرد بعد ذلك بتمني الحياة الغربية)[٢].

٣- محاولة إضعاف المعتقدات الدينية

طالما أن الفرد تقبل فكرة أن يكون الغرب حاكمًا يدير شئون البلاد، وكون نمط الحياة الغربية أو الأمريكية البديل المناسب لنمط الحياة السائدة في المجتمع العربي، فمن الممكن أن يكون هناك تخلٍّ عن المعتقدات الدينية التي يعتقد بها، إذ إنها لم تقدم له شيئًا طوال اعتقاده بها، بل على العكس من ذلك، أنها أخذت تسوغ حالة الظلم والغبن بطريقة تنم عن كونها امتحانًا سماويًّا واختبار صبر الصابرين، ومعتقدات مثل هذه تسوغ للظالمين ظلمهم لا تنفع أن تكون معتقدًا يعتقد بها الفرد، والحقيقة إن ذلك أخطر خطوة في برامج البث الفضائي لو اتبعت على هذا النحو، فإن تمكنت هذه البرامج من إضعاف المعتقدات الدينية سنكون على شفا كارثة مجتمعية وهي التخلي عن معتقداتنا الدينية، عند ذلك سنصبح مجتمعًا بلا خصوصية ثقافية.

٤ - محاولة إضعاف الولاء الوطني للفرد

إن القائمين على صناعة القرار في الولايات المتحدة يحاولون ومنذ فترة زمنية بأن يجعلوا نموذج الحياة الأمريكية النموذج البديل للمجتمع البشري، ولتحقيق هذا الهدف أخذوا يطرحون بعض البرامج والأساليب التي من شأنها، أن تجعل النموذج الأمريكي، نموذج الحياة المقبول لدى المجتمعات البشرية.

ومشروع العولمة هو أحد الأساليب التي يتم من خلالها نقل ولاء الفرد من وطنه الأم إلى العالم كله، أو إلى المشروع المعولم، كما كان ينادي به أصحابه، وبمقتضى ذلك يحل الولاء للعولمة محل الولاء الوطني، أو المسئولية الوطنية إذ لا يبقى في هذه الحالة ثمة وطن ينشده الفرد، بل إن العالم بأسره سيصبح وطنه، وبذلك فإن العولمة تسعى إلى ذوبان جميع الأفراد في المجتمعات البشرية في جماعة بشرية واحدة يتبنون (العقل المعولم) Globalized Mind إذا صح التعبير بأنماطه السلوكية، وأنساقه القومية التي يؤكدها، وأن يتخلى كل فرد من هؤلاء الأفراد عن معاييره وقيمه التي اكتسبها بفعل قنوات التنشئة الاجتماعية السائدة في ثقافته، وعلى ذلك، فإن العولمة تسعى إلى تحويل الجموع البشرية المختلفة باتجاهاتها، وقيمها ومعاييرها، وثقافاتها الفرعية إلى جماعة بشرية توحدها قيم ومعايير واحدة أو تكاد، وهي في واقع الأمر قيم ومعايير عولمة العالم.

ومما نخشاه، أن لغة الخطاب في هذه البرامج ستثير غضب وسخط بعض الأفراد على أوطانهم، ولا سيما فئة المقهورين منهم، إذ لا تزال هذه الفئة سواء من أولئك الذين يعانون الحرمان، أو من المثقفين، أو من خريجي الجامعات، تعاني من ضنك الحياة وصعوباتها، ربما ستجد في خطاب هذه البرامج ما يشبع حاجتها غير المشبعة وبخاصة في ميدان توزيع الثروة استنادًا إلى الجهد المبذول أو الكفاءة، ومن الطبيعي أن هؤلاء سيكونون من أشد الناس نصرة للعولمة.

ومن المدافعين عن أهدافها.

٥- إشاعة الإحساس بالاغتراب عن المجتمع

إن البرامج الوافدة من الفضاء ستعمد إلى تشكيل عالم طوباوي، أو ما يسمى بالمدينة الفاضلة التي تتوفر فيها كل مستلزمات الحياة الحرة الكريمة، وبمقتضى ذلك سينعم الإنسان بالحرية، ويتحرر من الخوف، ويشبع حاجاته النفسية والاجتماعية، وستكون العاقبة أن الإنسان في بلدان العالم الثالث، ومنها المجتمع العربي، سيجد هوة واسعة بين البيئة التي يعيش في كنفها، وذلك العالم الطوباوي الذي ما انفك يحلم به.

هذا العالم الطوباوي الذي تحددت معالمه في برامج البث الفضائي سيشبع حالة من الاغتراب لدى الفرد، بحيث يجد نفسه مبتعدا عن مجتمعه وغير مساهم فيه، مما يشجعه على تكوين صور نمطية عنه، بكونه مجتمعًا متخلفًا، ولا يمكن إصلاحه؛ لذا فإن العالم الطوباوي الذي هو في العادة عالم البرامج الفضائية سيحل محل عالمه الواقعي، والأدهى من ذلك أن الفرد طالما تقبل فكرة العالم البديل(العالم الطوباوي)، فمن الممكن أن يتقبل فكرة الاندماج بالعالم الذي تتوحد فيه الثقافات العالمية بثقافة واحدة، هي ثقافة العولمة.

٦- إضعاف العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة

إن برامج البث الوافد من الفضاء على كثرتها وتنوعها، ستجعل أفراد الأسرة الواحدة يصرفون الكثير من الساعات في المشاهدة، وبطبيعة الحال إن صرف هذه الساعات في المشاهدة سيقلل من عملية التفاعل الأسري[٢١].

وبالتبعية فإن عملية التفاعل اللفظي ستقل هي الأخرى، وهنا تكمن الخطورة؛ إذ إن غياب التفاعل بين أفراد الأسرة الواحدة سيؤدي إلى إحداث بعض المشكلات، ومنها: التغاضي عن مشكلات الأبناء التي قد تكون في

مرحلة التكون والنشوء؛ لذا فإن تدخل الآباء في هذه المشكلات، أو التعرف على طبيعة أسبابها، وهي لما تزال في مرحلة التكون والنشوء قد يفضي إلى إيجاد بعض الحلول لها.

كما أن عملية المشاهدة الطويلة، وهي بطبيعة الحال مشاهدة تنطوي على المتعة، ستؤدي إلى إنهاك المشاهدين وإحساسهم بالتعب والإرهاق، وعندئذ سيجد هؤلاء أن المشكلات التي يتعرضون لها سواء ما يتعلق منها بالأبناء، أو ما يتعلق بالمنزل الذي يعيشون فيه لا تعنيهم، أو في أقل تقدير سوف لا يأخذونها على محمل الجد، فضلا عن أن المشاهدة ستصرف الآباء والأبناء الكبار عن التفاعل اللفظي مع الأبناء الصغار الذين هم بحاجة إلى إدامة الصلة اللفظية مع الراشدين؛ لغرض تصحيح بعض الأخطاء الواردة في أحاديثهم، وعلى ذلك فإن تقليل التفاعل اللفظي داخل الأسرة سيقلل من المحصول اللفظي لهؤلاء الصغار الذين هم في مرحلة تكوين ذخيرة لغوية.

٧- محاولة إضعاف الإنجاز الدراسي

لا بد من التسليم بأن زيادة معدل الساعات التي تصرف في المشاهدة، ستؤدي إلى خفض الإنجاز الدراسي، وذلك بسبب إحساس الأفراد بالتعب والإنهاك، مما يؤدي إلى تقليل الساعات التي ستصرف في المطالعة، وتحصيل المعرفة، وبمرور الوقت سيشكل هؤلاء عادات تنطوي على نبذ المطالعة والتوجه نحو الدراسة مما سيضعنا أمام مشكلة في غاية الخطورة؛ ألا وهي الانصراف عن الإنجاز الدراسي، وستكون العاقبة زيادة معدلات الرسوب والتسرب في مدارسنا، وجامعاتنا العربية، ومن ثم يؤثر على عملية تكوين رأس المال البشري؛ لأن المجتمع يعول الآن على هذه الفئات العمرية (فئات المدارس والجامعات) في المستقبل القريب أو البعيد في أن تصبح ملاكًا علميًّا في كل قطاعاته بعد أن تهرم، وتشيخ الكوادر العلمية الحالية.

ويبدو أن بعض البلاد العربية أخذت تعاني من ظاهرة التسرب والرسوب بعد أن مرت بأزمات مجتمعية فما بالك إن شاع البث الوافد من الفضاء فماذا يحدث؟ نعتقد أن بعض البلاد العربية التي تمر الآن بأزمات مجتمعية، ربما تجعلها مهيأة لشيوع حالات تدهور الإنجاز الدراسي فيها، فضلا عن البرامج الوافدة التي ستحث الأفراد ولو بطريقة غير مباشرة على ترك العمل الدراسي والتوجه نحو الاستهلاك والانغماس باللهو.

٨- محاولة إضعاف الحكم الخلقي

من المسلم به في أدبيات علم النفس الاجتماعي أن المجتمعات البشرية لكي تحافظ على كيانها وعلى سلامة أفرادها، فإنها تلجأ في العادة إلى تشريع قوانين وأنظمة تنظم العلاقات السائدة بين أفرادها كما تسهم القيم الدينية والخلقية هي الأخرى في تنظيم هذه العلاقات، وفي أكثر الأحيان تعد القيم الدينية والخلقية أقوى رادع للفرد من التشريعات الوضعية عند محاولة خرق القواعد الخلقية بسبب أن هذه القيم تتضمن التحريمات والممنوعات، وما هو مقبول اجتماعيًا الأمر الذي يجعل منها ضوابط داخلية تمنع الفرد من خرقها، وفي الوقت نفسه فإن الفرد يحرص على الالتزام بها والامتثال لها، فأي خرق أو خروج عليها فإن الفرد سوف يواجه بالرفض والاستهجان من الجماعة التي ينتمي إليها، ناهيك عن تأنيب الضمير، وبذلك يصبح الالتزام بالقواعد الخلقية داخل المجتمع أمرًا ترفضه الأعراف والتقاليد الاجتماعية.

وأحياناً عندما يحاول الفرد خرق هذه القواعد، لا يفكر بعواقبها القانونية المترتبة على هذا الخرق، بل يشغل نفسه بالتفكير بالعواقب الاجتماعية، وعلى ذلك فإن الحكم الخلقي هو تعبير عن هذه القيم -أي: القيم الخلقية- التي أدخلها الفرد إلى نسقه القيمي؛ إذ تعمل على توجيه سلوكه نحو الالتزام بأعراف المجتمع ومعاييره، ومن هنا فإن برامج البث الوافد من الفضاء، تحاول جاهدة إضعاف الحكم الخلقي لدى الأفراد ليتسنى لها تشكيل

معتقداتهم واتجاهاتهم بما يتناسب وتوجهات العولمة.

وهذا معناه، أن إضعاف الحكم الخلقي سيهيئ الأفراد لاستقبال الرسائل الإقناعية بسهولة ويسر، وبما أن الحكم الخلقي هو الذي يقرر نوع السلوك، فمن المتوقع أن تصدر أنماطًا سلوكية تنسجم مع هذه البرامج وتتفق مع أهدافها.

بعبارة أخرى: إن تعرض الفرد لمزيد من المنبهات التي تنطوي على حرية جنسية دون قيد، فضلًا عن عدم الالتزام بالأعراف والتقاليد الاجتماعية، أو بمعنى أصح لم يكن ثمة أعراف، وتقاليد يمكن الالتزام بها، وهو بالتأكيد سيحض البعض على الخروج عليها، إن تعرض لمثل هذه المنبهات.

نقول: إن تعرض الفرد لمزيد من المنبهات التي تتضمن خروجًا على المألوف، وعلى ما درج عليه أفراد المجتمع، إنما يراد به إضعاف الحكم الخلقي، وفقًا لهذا الموقف لا مفر من التسليم بأن إضعاف الحكم الخُلقي يعني صراحة إضعاف مقاومة الإغراء [٢٢] وحسبنا أن نشير هنا إلى أن نظرية التعلم الاجتماعي ترى في تأطيرها النظري أن الحكم الخلقي هو قدرة الفرد على مقاومة الإغراء، واستنادًا إلى ذلك، فإن مقاومة الفرد للإغراء ستضعف بعد أن يتعرض إلى كم هائل من المنبهات التي تنطوي على مخالفة المعايير، وعدم الامتثال لها.

٩- محاولة تعليم الإنسان العجز:

إن غاية العولمة هي تشكيل سلوك الأفراد في المجتمعات المختلفة بما يتناسب وأهدافها، ولتحقيق ذلك لا بد من استخدام أحد الأساليب التي تشكل من خلالها السلوك.

وتعد عملية تعليم الإنسان العجز أو ما يسمى بـ(العجز المتعلم) Learned

Helpessness واحدًا من الأساليب التي يمكن لتحقيق هدف العولمة المنشود في تشكيل السلوك، وتقتضي عملية العجز المتعلم أن يوضع الفرد المعنى في ضائقة ولفترة زمنية قد تطول أو تقصر، وتحدد هذه الفترة استنادًا إلى متخذ القرار، وأهدافه المتوخاة من تجربة العجز المتعلم[٢٣].

وآية ذلك أن وجود الفرد في محنة أو ضائقة لا يستطيع الخروج منها، ولا يلتمس لها سبيلًا أو حلًّا كفيل بتعليمه اليأس والعجز، وهذا معناه: أن وجود الفرد أريد أن يتعلم الاستسلام، أو الإذعان للإجراءات التي رتبت له، مما سيجد نفسه مضطرًا أو مكرهًا على تعلم الاستسلام للمصير الذي رتب له، وبرامج البث الوافد من الفضاء ستعمد بالضبط على تعليمنا العجز، كيف؟

إن السبيل إلى ذلك هو بعرض كل منجزات الحضارة الغربية، وبخاصة في الميدان التكنولوجي وتنظيم شئونه العامة، وقد يؤدي ذلك إلى إحساس الفرد في المجتمع العربي بغياب مكانه على مدارج الحضارة العالمية، وبطبيعة الحال إن الانبهار بالمنجزات التكنولوجية للحضارة الغربية، وغياب مكانة العرب على مدارج الحضارة العالمية، سيزيد من إحباطه ويأسه من تحقيق قفزة نوعية في مختلف وجوه الحياة.

ومما يزيد من حالة العجز لدى الفرد، أن البرامج الوافدة ستبث رسائلها الإقناعية إلى الجمهور في أوقات مشاهدة مناسبة، يكون فيها الإنسان مسترخيًا وقادرًا على استقبالها، ومن ثم معالجتها، وعلى ذلك فإن استقبال الإنسان هذه الرسائل وهو في حالة استرخاء ستجعله يكتسب مزيدًا من العجز.

١٠- الحض على مخالفة معيار المسئولية الاجتماعية

بات واضحًا أن التنظيم الاجتماعي لكي يحافظ على ديمومته واستمراره وبقائه، لا بد من إن يجد له بعض القواعد، والنظم والمعايير التي من شأنها أن

تنظم العلاقات بين أفراده، وأن تحول دون سيطرة قانون الغاب على الحياة فيه، وبموجب هذه القواعد يتوقع أن تكون الحياة داخل التنظيم الاجتماعي آمنة ومطمئنة، وبازاء ذلك يصبح الفرد ملزمًا بأداء بعض الالتزامات والواجبات تجاه الأفراد الآخرين الذين يشاركونه الحياة في التنظيم الاجتماعي إن تعرضوا إلى أزمة أو محنة من قبيل: إسعاف مصاب أو تقديم المشورة أو النصيحة لشخص يعاني من أزمات شخصية أو التحذير من خطر ما.

واستنادًا إلى هذا التصور تصبح المسئولية الاجتماعية، الأساس الذي يستند إليه التنظيم الاجتماعي في عملية تنظيم العلاقات بين أفراده، من جهة، ومن جهة أخرى تضفي جانبًا إنسانيًّا على الحياة فيه؛ لذا فإن المسئولية الاجتماعية تعد ضرورة ملازمة للنظام الاجتماعي، إذ لا يمكن أن يكون هناك نظام اجتماعي دون مسئولية اجتماعية، ولا يمكن أن تكون هناك مسئولية اجتماعية دون نظام اجتماعي، فكلاهما وحدة واحدة لا انفصام بينهما.

والنظام الاجتماعي لا يمكن أن يحافظ على القواعد، والنظم التي تنظم العلاقات بين الأفراد إلا بوجود المسئولية الاجتماعية التي تضفي بدورها على الحياة في التنظيم الاجتماعي حالة من التآلف والانسجام.

من هنا فإن البث الفضائي، سيعمد إلى الحض على مخالفة معيار المسئولية الاجتماعية في مختلف وجوه الحياة الاجتماعية، وذلك بعرض برامج تنطوي على حالات ترك المصاب على قارعة الطريق، إذ يواجه مصيره أو إخفاء بعض المعلومات عن مجرم قاتل، تطارده العدالة، أو عدم الإدلاء، بشهادة حول قضية ما، أو عدم تقديم المشورة، أو النصيحة لشخص يعاني من بعض المشكلات، أو الحض على ابتزاز الآخرين بشتى الطرق والأساليب على الربح السريع إلى غير ذلك من الحالات التي من الممكن أن يمر بها الفرد في الحياة الاجتماعية.

وبطبيعة الحال فإن مثل هذه الحالات التي سيحض عليها البث الوافد من الفضاء، سوف تسوغ بأن كل تصرف يصدر عن الفرد ستكون له عواقب وخيمة، من أمثلة هذه العواقب الوخيمة: أنه في حالة إسعاف مصاب على سبيل المثال سيتعرض الشخص الذي أسعفه إلى المساءلة القانونية، وربما يتهم هذا الشخص بكونه المتسبب عن إلحاق الأذى بذلك المصاب، وعليه فالعاقبة أن يتحمل وزر ما فعله.

إن هذه المسوغات وغيرها التي سوف يتناولها البث الوافد من الفضاء ستجعل الفرد في حالة صراع نفسي، وطالما أن هذه الحالات قد أحدثت لديه صراعًا نفسيًّا، فمن المحتمل أن ينتهي به الصراع إلى تبني وجهة النظر التي تؤكد تجنب الموقف الذي يبعث على الألم إيثارًا للسلامة.

١١- إشاعة نماذج من البشر تتسم بالسلبية

من الملاحظ أن المجتمعات البشرية تنمي لدى أفرادها نماذج معينة من البشر، وهي أنساق قيمية تعكس فيها توجهاتها، وتصوراتها الحياتية، ونظامها الاجتماعي وطبيعة الحضارة السائدة فيها، سواء أكانت هذه المجتمعات متقدمة أم نامية، ووفقًا لذلك، فقد شاعت في المجتمعات الأوربية نماذج من البشر تؤكد الديمقراطية والمنفعة المادية، ومعالجة الأمور بطريقة علمية، ونبذ الخرافة، والتوجه إلى الحياة بشكل ممتع وسار، واستثمار اللحظة التي يمر بها الإنسان، واحترام الزمن.

بينما شاعت في المجتمعات النامية، بموجب الحضارة السائدة فيها نماذج من البشر تؤكد القدرية، وتمني العودة إلى الماضي، والاغتراب في المجتمع، والإيمان بالخرافة والأساطير الشعبية، وإحساس الإنسان بقهر الظروف والطبيعة والآخرين والسلطة، وإشاعة مظاهر من التدين الشكلي، والشعارات البراقة التي تدل على المواطنة، وتقدير الناس واحترامهم من

خلال مراكزهم الاجتماعية التي يشغلونها، أو من خلال ما يمتلكونه من ثروة.

وفي الواقع إن هذه النماذج من البشر هي نتاج الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والديمقراطية والتكنولوجية التي تمر بها المجتمعات البشرية، وعلى هذا الأساس، فإن المجتمع الذي تشيع فيه نماذج من البشر تؤكد الديمقراطية، وحرية الفرد، وإشباع حاجاته، إنما هي تعكس ظروف المجتمع وطبيعة التطور الذي وصل إليه ووضوح النظام الاجتماعي بقوانينه، ونظمه، وقواعده التي تسير عليها، فضلا عن وجود عقد اجتماعي ينظم العلاقة بين الفرد وذلك المجتمع على أساس العقد الاجتماعي، فإن أي إخلال من جانب الفرد بواجباته تجاه المجتمع فإن ثمة إجراءات قانونية تتخذ بحقه؛ وذلك للحفاظ على تنظيم هذه العلاقة.

وعند إخلال المجتمع بواجباته تجاه الفرد، ثمة إجراءات أيضًا يلجأ إليها الفرد لتقويم الخلل، والكشف عن مواطن الضعف، وتشريع بعض القوانين، أو سن بعض الإجراءات للحيلولة دون تكرارها.

إذن لا غرابة أن تشيع مثل هذه النماذج من البشر في نظام اجتماعي على أساس العقد الاجتماعي، وهو السبب نفسه الذي يجعل من نماذج البشر الشائعة في المجتمعات النامية لا تشيع في البلدان المتقدمة.

نقول: إن المجتمع العربي هو جزء من البلدان النامية، تشيع فيه الآن نماذج من البشر تكاد تشيع في تلك البلدان، ولكن بدرجات متفاوتة، ولعل من أبرز نماذج البشر الشائعة الآن في المجتمع العربي:

١- نموذج الإنسان المتدين.

٢- نموج الإنسان المواطن.

٣- النموذج الإنساني.
٤- نموذج الإنسان المنجز.
٥- نموذج إنسان السوق.
٦- نموذج الإنسان المقهور.
٧- نموذج الإنسان المنحرف.
٨- نموذج الإنسان المغترب عن المجتمع.
٩- نموذج الإنسان الاستعراضي[٢٤].

إذا نحن عدنا إلى نماذج البشر؛ لوجدنا نماذج إيجابية، وأخرى سلبية، وهو أمر طبيعي، ولا غرابة فيه، وقد أشرنا سلفًا إلى أن هذه النماذج من البشر أو التوجيهات القيمية كما يصطلح عليها أحيانًا، هي نتاج الظروف المجتمعية السائدة، وما يهمنا منها، أن البث الوافد من الفضاء سيعمد إلى تقوية نماذج معينة من البشر، وإضعاف نماذج أخرى.

إذ إن الهدف من البث هو الترويج لأيدلوجية العولمة كما أشرنا، وللوصول إلى هذا الهدف يقتضي الأمر تهميش الثقافات، وإشاعة أنساق قيمية تتفق، وهذه الأيدلوجية واستنادًا إلى ذلك، فإن البرامج الوافدة من الفضاء، ستعمد إلى تقوية نماذج البشر السلبية في المجتمع العربي التي نعني بها حصرًا:

نموذج الإنسان المغترب عن المجتمع، ونموذج الإنسان المقهور، ونموذج إنسان السوق، ونموذج الإنسان الاستعراضي، ونموذج الإنسان المنحرف، بينما ستعمد إلى إضعاف نماذج البشر الإيجابية التي نعني بها حصرًا:

نموذج الإنسان المتدين، ونموذج الإنسان المواطن، ونموذج الإنسان المنجز، والنموذج الإنساني.

وستكون عاقبة ذلك أن المجتمع سيعاني من فقدان المعايير، أو ما يسمى بالأنوميا Anomie، وسنجد أنفسنا أمام تفكك اجتماعي يصعب السيطرة عليه، ولا سيما أن أيدلوجية العولمة ستحاول تهميش دور الدولة في السيطرة على مواطنيها، وضبط سلوكها؛ مما يتيح الفرصة للعشائرية والطائفية أن تعيد أمجادها مرة أخرى في أن تكون بديلًا عن الدولة في ضبط سلوك الأفراد، وبعد أن تهمش الدولة سلطة توفر الأمن والاستقرار، وتنظم العمل داخل مؤسسات المجتمع، ستعمد بعد ذلك إلى تهميش القانون، وفقدان فاعليته في عملية الضبط الاجتماعي مما يؤدي إلى شيوع الفوضى في مؤسسات المجتمع، وبالطبع إن حالة الفوضى ربما تتيح الفرصة للشِّلل المنحرفة، والفئات المحرومة، والمقهورة، والساخطة على المجتمع إلى أن تفرض أساليبها الحياتية الخاصة بها، مما يعني أن المجتمع سيعاني من دوامة الاضطرابات الاجتماعية.

الآفاق المستقبلية لبرامج البث الوافد من الفضاء في المجتمع العربي

لا بد من التسليم ابتداءً، أن البث الفضائي لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهله أو محاولة منع الأفراد من مشاهدته والتعرف على برامجه، وذلك بسبب استخدامه تقنيات متقدمة تفوق بكثير إمكانيات المجتمع العربي هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن البث الفضائي يتجاوز حدود الدول والمحطات الأرضية، وبإمكان الفرد أن يلتقطه بسهولة، ودون إذن من أحد.

أو بعبارة أخرى لم تعد ثمة حدود أو حواجز بإزاء تدفق المعلومات[٢٥] في عصر المعلومات؛ لذا ليس باستطاعتنا في الوقت الحاضر منعه أو حجبه عن الأفراد، فلقد أصبح حقيقة لا بد من التسليم بها.

ولنا في تجارب الاتحاد السوفيتي السابق، والبلدان الاشتراكية خير دليل وشاهد، إذ لم ينجح الستار الحديدي الذي فرض على شعوب تلك البلدان من محاولات الاتصال بالعالم الآخر غير الشيوعي، فلقد أوجد هذا الستار مقاومة

خفية غير معلنة نتيجة الكبت والحرمان، الأمر الذي أدى إلى تسرب معلومات ممنوعة، وتداول بعض السلع والمواد المهربة من العالم الرأسمالي، مما أوجد حالة مخالفة للقانون، وبمرور الوقت ضعفت شرعية النظم السياسية هناك، ومن ثم أصبح الخروج على تشريعاتها أمرًا مألوفًا، وكلنا شهد المصير الذي انتهت إليه هذه النظم.

نقول: إن محاولات منع الأفراد من عملية الاتصال بحضارة العالم الآخر بأساليب شتى كاصطناع العراقيل، أو سن التشريعات التي تمنع الأفراد من الاتصال ستزيد من حالة المخالفة في المجتمع لمواجهة هذه الظاهرة الجديدة، إذ إن السنوات المقبلة ستشهد استخدم تقنيات بدرجة متقدمة جدًّا، وعندئذ سوف لا تنفع الحيطة والحذر، فإذا كان المتخصصون في ميدان الاتصال يرددون عبارة أن العالم قد أصبح قرية صغيرة بفعل وسائل الاتصال، فإن وسائل اتصال القرن الحادي والعشرين ستجعل العالم بين يدي الفرد وهو جالس مسترخ في منزله.

وإذن فإن الأمر ينبئ بالخطر، فإن لم تتخذ بعض التدابير من شأنها أن تجعل البرامج العربية محببة للفرد، فإن برامج البث الوافد ستكون بديلاً للبرامج السائدة وستشكل سلوكًا بما ينسجم وتوجهات العولمة؛ لذا نقول: إن الخطورة تكمن في الكيفية التي نحافظ من خلالها على وجودنا الثقافي.

ما هو المطلوب إذن؟

المطلوب من متخذي القرار في المجتمع العربي أن يبدءوا بعقد اجتماعي جديد ينظم العلاقة بين الفرد (المشاهد، المستمع، القارئ)، ووسائل الاتصال الجمعية، بحيث تكون هذه العلاقة قائمة على أساس أن تقوم وسائل الاتصال الجمعية بإشباع حاجات الفرد النفسية والاجتماعية من جانب، ومساعدته على حل بعض أزماته الشخصية التي يمر بها بين الآونة والأخرى من جانب آخر.

وفي الوقت نفسه أن يقوم الفرد بعملية تقويم خطط وبرامج هذه الوسائل، فإن ساد العقد الاجتماعي بين الفرد ووسائل الاتصال الجمعية فمن المحتمل أن يكون هناك انصراف عن البرامج الوافدة، وإن استمرت وسائل الاتصال الجمعية بتجاهل العقد الاجتماعي، بالتأكيد سيكون هناك نفور وعدم انتباه إلى وسائلها الموجهة.

كما أسلفنا، يحق لنا إثارة التساؤل الآتي:

ما هو دور قنوات التنشئة الاجتماعية تجاه البرامج الوافدة من الفضاء بعد أن تتمكن الأسرة العربية من التقاطه بسهولة ويسر من خلال جهاز التلفزيون؟

للإجابة على هذا التساؤل نقول: إن قنوات التنشئة الاجتماعية (الأسرة، المؤسسات التربوية، الدين، وسائل الاتصال الجمعية) ستواجه بعض الصعوبات في تشكيل سلوك أفرادها، فعلى مستوى الأسرة العربية تواجه الآن ضغوطًا حياتية مختلفة سواء في الميدان النفسي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو التربوي، أو السياسي، وبالتأكيد إن استمرار التعرض لهذه الضغوط سيضعف من دورها، أو فاعليتها في عملية الإرشاد والتوجيه.

واستنادًا إلى ذلك من المتوقع أن لا يكون لها دور فاعل في ضبط سلوك أبنائها إذ ستظل منشغلة بهمومها الحياتية المتلاحقة أكثر من انشغالها بأساليب ضبط الأبناء ورعايتهم وتوجيه سلوكهم، وعلى مستوى المؤسسات التربوية، وهي إحدى قنوات التنشئة الاجتماعية تعاني الآن من غياب الفلسفة التي تستند إليها في العملية التربوية، مما أضعف من أدائها.

ومن ثم أصبحت عاجزة عن تشكيل سلوك أبنائها[٢٦]، فضلًا عن سيطرة الجانب السياسي عليها؛ مما زاد من ضعف فاعليتها في المجتمع، بسبب كونها

مؤسسات مثقلة بالكثير من المشكلات المتعلقة بوظيفتها التربوية، فمن المتوقع أن لا تقدم أية حلول مقترحة للحد من تأثير البرامج الوافدة من الفضاء.

ولو اتجهنا صوب وسائل الاتصال الجمعية لوجدنا، أن حالها ليس بأفضل من حال قنوات التنشئة الأخرى، إذ إنها تشكو ضعفًا في إيصال وسائلها - إن استثنينا بعض وسائل الاتصال العربية - وهذا يعود بطبيعة الحال إلى أنها تفتقر إلى التخطيط البرامجي، وما هو مطلوب منها.

وبسبب الافتقار إلى التخطيط في إعداد البرامج، وغياب القيادات المتحضرة في إدارتها أصبحت وسائلها بحكم الأمر الواقع، وليس بحكم ما يفضله الجمهور، فكانت عاقبة ذلك النفور من رسائلها الموجهة وعدم التأثر بها، وإن استمر حالها هكذا، فلا نتوقع منها أن تحدث تغييرًا في اتجاهات الأفراد، أو الإسهام في تشكيل سلوكهم، مما يدعو إلى عقلنة هذه الوسائل، عندما تبث رسائلها إلى الأفراد، إذ كلما كانت الرسائل الموجهة عقلانية، وتنسجم مع حاجات الفرد النفسية والاجتماعية، كانت أدعى إلى جذب الانتباه والعكس صحيح، كلما اتسمت هذه الوسائل باللاعقلانية صرفت الانتباه عنها.

الهوامش

(١) عبيد نايف علي، العولمة والعرب، المستقبل العربي، العدد (٢٢١) بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧، ص٣٠ أبو عرجة، تيسير وسائل الإعلام الأمريكية والصورة العربية، البصائر، العدد (٣)، عمان، عمادة البحث العلمي بجامعة البنات الأردنية الأهلية، ١٩٩٧، ص١١٧.

(٢) المصدر السابق، ص٣٠.

(٣) المصدر السابق، ص٣٠.

(٤) عبد الرحمن، عواطف، قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٤، ص٩٤.

(٥) الجابري محمد عابد، المسألة الثقافية ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧، ص١٣٧.

(٦) المصدر السابق. ص١٧٧.

(٧) المصدر السابق. ص١٧٨.

(٨) المصدر السابق. ص١٧٨.

(٩) الجابري محمد عابد، قضايا الفكر المعاصر ط١ ، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧، ص١٣٧.

(10) Bandura, A, The Role of Modeling processes in personality Development, in : sma-dowsky, A,M "child and Adolesceent Development: Laboratory-Field Relationships (New York: The Free press, 1973), pp.161-164.

(11) Morgan, C.T and et. Al. Introduction to psychology, 7th ed, New York: Mc Graw Hill Book company , 1986, p. 396. secord, P.F and back man, C.W . social psychology, 2nd ed , New York: Mc Graw-Hill book Company, 1974)p.92.

(١٢) إبراهيم عبد الستار، أسس علم النفس (الرياض: دار المريخ للنشر، ١٩٨٧)، ص٢٠٠.

(١٣) المصدر السابق: ص٢٠٠.

(١٤) محمود شمال حسن، المشاهدة التلفزيونية وإشكالية استشارة السلوك العدواني، آفاق عربية، العدد (١١-١٢) بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٩٨، ص٦٤.

(15) Myers. , D. G Psychology, 1st ed (New York: Worth publishers, inc. 1986) P.561

(16) Hurloch, E.B, Child Development, 6th ed. (Aucland: Mcgraw-Hill book Company, 1978), p.309.

(17) Lindgren, H.C. An Introduction to Social Psychology, 2nd ed. (New York: John Wiley 1973), p207.

(18) Hurlock, 1978, Ibid, p.309.

(١٨) أستيتية، دلال ملحس وعبدوني كامل، اتجاهات الأبناء نحو أنماط تنشئة الآباء وعلاقتها بمتغيرات الجنس والمستوى التعليمي، ودخل الأسرة بالمرحلة الثانوية بعمان الكبرى الأولى، دراسات، العدد (٢)، (عمان) : الجامعة الأردنية، ١٩٩٧، ص٣٥٩.

(١٩) محمود شمال حسن، بث برامجي أم تشكيل نسق قيمي، دراسة الأنساق القيمية المترتبة على البث الفضائي في المجتمع العربي، شئون عربية، العدد ٩٧ (مارس - آذار، ١٩٩٩) ص٥١.

(٢٠) الهيتي هادي نعمان، اتصالات الفضاء واجتمالات تأثيرها على الأسرة العربية، العدد، (١٩٩٤) ص١٧١. المرسي محمد محمود، الآثار السلبية والإيجابية للتلفزيون على الأطفال، دراسة في تأثير التلفزيون وإمكانية الاستفادة منه، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد (٥٤) الكويت، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت) ١٩٩٦، ص٢٨٣.

(20) John. O. Corner, and j. Wrightsman. L.S, Moral, Development and The Development of Motives, In: Wrightsman , L. S . Social psychology in Seventies. (California grooks/cole publishing company monterey. 1972)p. 118.

(21) Seligman, A. E. and maier, S. F Allevition of Learned Helplessness in the dog journal of Abnormal psyehology, No. 3. vol. 73. 1968. pp. 260-261.

(٢٢) محمود شمال حسن ، دراسة المتغيرات المساهمة بسلوك المجاراة لمعيار المسئولية الاجتماعية، (بغداد: الجامعة المستنصرية، أطروحة دكتوراه غير منشورة ١٩٩٧)، ص٩٩-١٠١.

(٢٣) رستون، ولتر، ب، أفول السيادة: كيف تحول ثورة المعلومات عالمنا ط١، ترجمة سمير عزت نصار، وجورج خوري (عمان: دار النسر للنشر والتوزيع، ١٩٩٥)، ص١٦١.

(٢٤) محمود شمال حسن، المجتمع المنجز: رؤية تصورية لتهيئة المجتمع العربي للإنجاز، شئون عربية، العدد ٩١، القاهرة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ١٩٩٧، ص١١١.

خطاب الفضائيات
وأثره في تزييف الوعي الاجتماعي

المقدمة

لقد كان من النتائج المترتبة على الثورة الاتصالية التي شهدها عالمنا المعاصر انتشار الفضائيات، ككل القنوات الفضائية الوافدة إلينا بتوجهات قيمية وأيديولوجية مختلفة، ولقد أثارت هذه الفضائيات منذ ظهورها في البلاد العربية وحتى اللحظة الراهنة جدلًا واسعًا بين الأوساط العلمية، إلى جانب الجدل الدائر بين أوساط عامة الناس؛ فلقد انقسم هؤلاء، سواء من الأوساط العلمية أو من عامة الناس إلى فريقين اثنين:

فريق مؤيد: يرى في الفضائيات وسيلة اتصالية، تسهم مع غيرها من القنوات الجمعية في إشاعة المعرفة عن العالم المحيط بنا، وإنها تؤدي وظيفة الترفيه والتسلية، كما تؤدي وظيفة الإخبار؛ بمعنى أنها تطلعنا على العالم برمته، وتجعله في لحظات معدودة أمام أنظارنا، كذلك لا تكمن وظيفتها كما يزعم المؤيدون على نقل أخبار العالم السياسية فحسب، وإنما تنقل إلينا كل جديد عن هذا العالم؛ لكي نكون على اتصال بما يجري فيه من أحداث وتطورات.

وفريق معارض: يرى في الفضائيات أنها وسيلة اتصالية تستهدف تزييف وعي الأفراد، ومن ثَمَّ تصرف انتباههم إلى قضايا أقل أهمية.

وآية ذلك، فإن هذا الجدل لم يزل -بَعْدُ- دائرًا بين الأوساط العلمية منها والشعبية، وإننا في هذه الدراسة نتبنى الرأي القائل: إن الفضائيات المنتشرة في البلاد العربية وسيلة اتصال تخدم -بالدرجة الأساس- النظام المهيمن على السياسة، وإنها غدت مزيفة لوعي الأفراد بما يتناسب وتوجهاته

الأيديولوجية.

نقول: بالرغم من الوظائف المتعددة للفضائيات التي تؤديها في حياتنا اليومية، فإنها -ولا ريْبَ- متهمة بتزييف الوعي الاجتماعي، وبذلك أصبحت في دائرة الاتهام، وهذا معناه: أن الرسائل الصادرة من هذه الفضائيات تستهدف تضليل الناس إزاء قضايا معينة، وفي الوقت نفسه تحاول هذه الفضائيات تشكيل وعيهم، طبقًا لأيديولوجية النظام السياسي.

وإن الحيادية -التي يؤكدها المسئولون عن خطابها- إنما هي محض وهم، وعلى ذلك نقول: إن الفضائيات التي تنتشر في البلاد العربية متهمة من جانب بعض المراقبين بالسعي الحثيث لصرف انتباه الناس عن قضايا معينة، وتركيزها باتجاه قضايا أخرى أقل أهمية، أو لِنَقُل: تركيز الانتباه باتجاه قضايا تهم الخطاب الرسمي بالدرجة الأساس؛ ولأجل أن ندعم الرأي الذي استندت إليه هذه الدراسة، نجد من الضروري الاقتصار على مناقشة الفقرات الآتية:

- مفهوم الوعي الاجتماعي.
- خصائص البث التلفزيوني الوافد من الفضاء.
- الصورة التلفزيونية وأثرها في تشكيل الوعي الاجتماعي.
- أساليب تزييف الوعي الاجتماعي في الفضائيات العربية.
- الآثار النفسية المترتبة على تزييف الوعي الاجتماعي في الفضائيات العربية.

مفهوم الوعي الاجتماعي

بادئ ذي بدء، نقول: إنه ليس من السهولة بمكان وضع تعريف محدد لمصطلح الوعي الاجتماعي (social consciousness) ومرد ذلك أن هذا المصطلح لم يزل -بَعْدُ- يثير الخلاف بين الباحثين في العلوم الإنسانية على وجه

التحديد، ولم يستقر على تسمية محددة؛ بدليل أن علم النفس يجرده من الصفة الاجتماعية، ويفضل تسميته المفردة (الوعي) فحسب، بينما يشدد علم الاجتماع على ضرورة ربطه بالبيئة الاجتماعية، ومن هنا صار يطلق عليه (الوعي الاجتماعي).

إن محاولة فهم هذا المصطلح يقتضي منا تفكيكه إلى مقطعين اثنين هما: الوعي والوعي الاجتماعي؛ ليتسنى لنا بعد ذلك فهمه، ومن ثم تعريفه.

من الناحية النفسية يُعَرَّف الوعي: أنه عملية "احتفاظ الفرد بما مرَّ به من خبرات وبما حصله من معلومات، وكسبه من عادات ومهارات"[١].

هذا التعريف يحصر الوعي بوظائف معرفية فحسب؛ تلك الوظائف التي تنحصر في الاحتفاظ بالخبرات، والمعلومات، واكتساب العادات، والمهارات، وهو لا يحدد حقيقة ماهيته، أو لنقل -على نحو آخر-: إن هذا التعريف لا يجيب عن السؤال: ما الوعي؟.

ويُعَرَّف الوعي أيضًا: بـ"القدرة على الحصول على الخبرة من العالم بثرائه"[٢].

إذا نحن أمعنا النظر في هذا التعريف وجدنا أنه -هو الآخر- لم يحدد ماهية الوعي، واكتفى -كسابقه- بتحديد وظيفته المعرفية التي ترتكز على الحصول على الخبرة من عالم غني بالتنبيهات.

وهناك تعريف يحدد ماهية الوعي: كونه "انتباه انتقائي لمدركات وأفكار ومشاعر متواصلة" [٣].

نستطيع القول: إن هذا التعريف تقدم خطوة باتجاه تحديد ماهية الوعي؛ إذ لم يذكر وظائفه المعرفية، وإنما ركز على ماهيته، كونه انتباه؛ وهذا الانتباه هو

انتقائي، أي: الانتباه إلى تنبيهات معينة دون غيرها من التنبيهات التي تعج بها البيئة.

كذلك، فإن هذا الانتباه -ما ورد في التعريف- ينحصر في العمليات التي تشتمل على المدركات، والأفكار، والمشاعر التي تتكرر على الدوام.

وقد يعرف الوعي على: أنه "الدراية بأي شيء"[٤]، بحيث يكون الفرد على علم بما يدور داخل ذاته أو خارجها من أفكار، ومشاعر، وخيالات، وذكريات، ومدركات[٥].

واضح أن هذا التعريف يحدد الوعي بالدراية والمعرفة لما يجري داخل الفرد وخارجه من عمليات؛ تلك الدراية التي تجعل الفرد واعيًا بما يحدث حوله.

ويُعَرَّف الوعي على: أنه "حالة المعرفة والانتباه"[٦]، أو "وعي الأفعال والنشاطات والاستجابات"[٧]، أو "معرفة الذات والانتباه إليها"[٨].

إن مما يجب الإشارة إليه -في هذا الصدد- أن هذه التعريفات لا تخرج عن سياق التعريفات الآنفة الذكر؛ تلك التعريفات التي تشير إلى أن الوعي هو المعرفة بما يجري داخل الفرد من عمليات أو المعرفة بالاستجابات التي تصدر عنه.

من ذلك نخلص إلى القول: إن الوعي هو عملية معرفية تستهدف -بالدرجة الأساس- معرفة العالم الذي يحيط بالفرد والإلمام بشئونه؛ بهدف إضفاء معنى مناسبًا عليه، إذا كان هذا المقصود بالوعي، فما المقصود بالوعي الاجتماعي؟.

وهل ثمة اختلافات بينه وبين الوعي الاجتماعي؟.

نقصد بالوعي الاجتماعي: "مجموعة المفاهيم، والتصورات، والآراء، والمعتقدات الشائعة لدى الأفراد في بيئة اجتماعية معينة، التي تظهر في البداية بصورة واضحة لدى مجموعة منهم، ثم يتبناها الآخرون؛ لاقتناعهم بأنها تعبر عن موقفهم"[٩].

إن الوعي الاجتماعي -طبقًا لهذا التعريف- يتحدد بمجموعة من الآراء والتصورات التي تنتشر في بادئ الأمر بين مجموعة من الأفراد في بيئة اجتماعية معينة، ثم سرعان ما تنتشر هذه الآراء والتصورات بين أفراد آخرين في البيئة نفسها؛ اعتقادًا منهم أنها تعبر عن وجهات نظرهم إزاء قضايا كثيرة.

ويُعرَّف الوعي الاجتماعي من وجهة نظر أخرى: أنه ذلك المفهوم الذي نعني به "محصلة معرفة وإلمام كل جماعة بالقضايا الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية على المستويين المحلي والوطني"[١٠].

إذا نحن أمعنا النظر في هذا التعريف وجدنا أن الوعي الاجتماعي هو عملية إلمام، أو معرفة بالقضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة لدى جماعة معينة.

وإذا انتقلنا إلى تعريف آخر نجد أنه مفهوم ينطوي على "إدراك الناس وتصوراتهم للعالم المحيط بهم، بما يشتمل عليه من علاقات بالطبيعة وبالإنسان وبالأفكار"[١١].

يُفهَم من هذا التعريف أن الوعي الاجتماعي: عبارة عن تصورات يكونها الأفراد عن العالم الذي يعيشون فيه؛ ذلك العالم الذي يحتوي على أصناف من العلاقات، تلك العلاقات التي تكون إنسانية، كما هو الحال في علاقات الناس بعضهم ببعض، وأصناف أخرى غير إنسانية، وهذه تنقسم إلى نوعين:

فأما **النوع الأول**: فهو العلاقة الحادثة مع الطبيعة كما هو الحال في العمليات الجارية؛ لتكييف هذه الطبيعة لأهداف إنسانية.

وأما **النوع الثاني**: فهو العلاقة الحادثة مع الأفكار، كما هو الحال في تبني الآراء الفلسفية أو النظرية، ومحاولة توظيفها في المجالات الإنسانية.

وبذلك يكون هذا التعريف قد حدد على وجه الدقة ماهية الوعي الاجتماعي، وهناك تعريفات أخرى للوعي الاجتماعي لا تخرج عن سياق التعريفات التي مرَّ ذكرها واستنادًا إلى التعريفات التي أشرنا إليها، يمكن القول: إن الوعي الاجتماعي عبارة عن مجموعة من الأفكار أو التصورات التي يُكوِّنها الأفراد عن بيئتهم الاجتماعية حصرًا، بما يجري فيها من أحداث اجتماعية وعلاقات إنسانية؛ تلك الأفكار أو التصورات التي تفضي بهم إلى اتخاذ موقف إزاء قضايا، أو مشكلات معينة.

وأما التزييف في الوعي الاجتماعي، فيراد به هنا: عملية تشويه مدركات الأفراد، أو تضليلهم بمعلومات خاطئة، يكون القصد منها صرف انتباههم عن قضايا مهمة إلى أخرى أقل أهمية، أو أنها غير ذات موضوع.

خصائص البث التلفزيوني الوافد من الفضاء

تشير الوقائع الميدانية أن البث التلفزيوني الوافد من الفضاء، يتميز عن البث التلفزيوني الأرضي بعدد من الخصائص وفي هذا السياق نشير إلى أهمها:

١- أن البث التلفزيوني الوافد من الفضاء يمنح المستقبل خيارًا في مشاهدة برامجه المفضلة وقت يشاء، وفي الوقت نفسه، تخلص من سيطرة المرسل الذي يفرض عليه برامج من نوع معين، وبذلك فهو غير ملزم بمتابعة برامجه، بل هو حرٌّ في اختيار القنوات التلفزيونية التي تنسجم مع ميوله أولًا، ومع توجهاته القيمية ثانيًا.

٢- ومن الخصائص التي يتسم بها البث التلفزيوني الوافد من الفضاء، أنه زاد من ساعات مكوث الفرد في منزله، وقلل من التعرض للقنوات الاتصالية الأخرى؛ إذ تشير الوقائع الميدانية أن البث التلفزيوني الوافد من الفضاء، عمد إلى خفض معدلات القراءة للصحف؛ وهذا يعني أن الفرد بدلًا من أن يقرأ الصحف اليومية بهدف الإلمام بالشئون المحلية والعالمية، أخذ يتابع النشرات الإخبارية عبر القنوات التلفزيونية الوافدة، وهو جالس في منزله.

كذلك خفض البث التلفزيوني الوافد من معدلات زيارة السينما، أو زيارة المسرح؛ وهذا يرجع إلى أن القنوات التلفزيونية الوافدة أخذت تعرض أفلامًا ومسرحيات في أوقات محددة، وفي أيام معلومة، ولعل ذلك أفضى إلى تقليل معدلات التعرض لهذه القنوات بدرجة كبيرة.

وما يهمنا هنا، أن البث التلفزيوني الوافد زاد من ساعات مكوث الفرد في منزله، ولقد ترتب على هذا المكوث تقليل التعرض للنشاطات الاتصالية الأخرى، مما أفضى إلى اكتسابه ثقافة تستند إلى المضمون الوارد في الصورة.

٣- ولعل من الخصائص التي يتسم بها البث التلفزيوني الوافد من الفضاء؛ أنه يتيح للفرد الحرية في انتقاء البرامج التي تتناسب مع ميوله واهتماماته، وحقيقة الأمر أن حرية الانتقاء هذه ناشئة من كثرة القنوات التلفزيونية المستلمة، التي وفرت بدورها برامج متعددة المضامين، وهو الأمر الذي جعل الفرد ينتقي البرنامج الذي ينسجم مع ميوله واهتماماته، سواء كان هذا البرنامج سياسيًّا، أو ثقافيًّا، أو اجتماعيًّا؛ وعلى ذلك نقول: إن البث التلفزيوني الوافد من الفضاء، أتاح -بين ما أتاح- حرية انتقاء البرامج التي تتناسب مع ميول الفرد واهتماماته.

٤- كما أن تجنب الرقابة على استلام القنوات التلفزيونية الوافدة من الفضاء، تعد من الخصائص التي يتسم بها البث الفضائي؛ إذ أصبح بالإمكان

استلام القنوات التلفزيونية من مصادر متعددة، ولعل ذلك أتاح للفرد حرية التعرض لوجهات نظر مختلفة، بدلًا من التعرض لوجهة نظر واحدة كما هو الحال في حقبة ما قبل البث الفضائي، والنظرة الأحادية تعكس بطبيعة الحال وجهة نظر مرسل الرسالة، وهذا بدوره يعبر عن توجهات النظام السياسي السائد الذي يستهدف من.ورائها المحافظة على ما استقر من أوضاع، أو ما كان مطلوبًا له أن يستقر.

وبذلك، فإن القنوات التلفزيونية الوافدة، مكنت الفرد في كل مكان من العالم من تجنب الرقابة الحكومية، وانتقاء البرامج التي تشتمل على وجهات نظر مختلفة.

٥- كذلك، فإن البث التلفزيوني الوافد، مكَّن الفرد من الانفتاح على العالم وهو في منزله، وذلك بمتابعة بعض القنوات التلفزيونية التي أتاحت له معرفة ثقافات الشعوب، وحضاراتها، والإلمام بتفاصيل شئونها وقضاياها.

الصورة التلفزيونية وأثرها في تشكيل الوعي الاجتماعي

تشير الوقائع الميدانية أن الصورة التلفزيونية لها أثر بالغ في تشكيل وعي الفرد إزاء قضايا مختلفة، ولما كانت الصورة التلفزيونية لها أثرٌ بالغٌ في تشكيل وعي الفرد، فلقد صارت منافسًا قويًّا للقوى الثقافية والاجتماعية المؤثرة في تشكيل وعيه؛ نظرًا لما تتمتع به الصورة التلفزيونية من جاذبية وسعة انتشار، فقد صارت ندًّا للمدرسة في عملية التنشئة، حتى لقد وُصفت بالمنهج الأول، بينما وصفت المدرسة بالمنهج الثاني[١٢].

وهذا يعني جملة: أن المدرسة، قد ضعف دورها في التأثير في سلوك أبنائها لتحل بذلك الصورة التلفزيونية في المقام الأول في عملية التأثير؛ والسبب يعود إلى أن التلفزيون صار يلازم الفرد في كل مكان؛ إذ يلازمه في غرفة النوم، وفي غرفة الجلوس وفي أماكن الاستراحة.

ولما كانت الصورة التلفزيونية لها من التأثير في سلوك الأفراد ما يفوق قنوات التنشئة الاجتماعية الأخرى، فمن الممكن أن تكون فاعلة في عملية تشكيل وعي الأفراد، بما يتناسب والمضمون الوارد فيها، فعلى سبيل المثال أن المضمون الوارد في الصورة، قد يسهم في حث الأفراد على الإنجاز، أو معوقًا له، وذلك بتأكيد نماذج بشرية تتسم بالإنجاز، والنشاط، والحيوية، والدأب المستمر لتحقيق أهدافها الحياتية بأساليب مشروعة.

ومن الطبيعي أن عرض هذه النماذج على الدوام طيلة مدة البث، سيؤدي بالمشاهدين إلى تقليدها، بَيْدَ أن الصورة التلفزيونية قد تكون معوقًا للإنجاز، في حال عرض نماذج بشرية تتسم بالاستعراض والانحراف والتحايل على الغير، مما يترتب على ذلك إشاعة مُناخ مقاوم للتغيير، وفي الوقت نفسه معارض للإنجاز.

إذا نحن عدنا إلى البرامج في الفضائيات العربية وجدنا أن أغلبها يحاول إشاعة مثل هذا المناخ؛ بدليل أن بعض الساعات التلفزيونية تصرف على الإعلانات التي تروج لهذه السلعة أو تلك، أو لهذه الخدمة أو تلك، وعادة ما يكون الترويج لسلع تخلو من الجدوى الاقتصادية، وتدخل في باب الجدوى الترفيهية؛ كالإعلان عن مطاعم فاخرة، أو سيارات فارهة، أو فنادق فخمة، أو غير ذلك.

إن الإعلان عن مثل هذه السلع، أو الخدمات سيستثير لدى بعض الأفراد -ولا سيَّما أولئك الذين يعانون الحرمان والفقر- حاجات غير مشبعة، وربما ينتهي الأمر بهم إلى المخالفة القانونية في محاولة لإشباع بعض حاجاتهم.

ولعل الأمر نفسه ينطبق على البرامج التليفزيونية من أفلام ومسلسلات، فهذه البرامج قد أخذت تعرض نماذج من البشر، تؤكد الاستعراض، أي: أن

غايتها استعراض ما لديها من ممتلكات ليس إلا، والأخطر من ذلك أنها أخذت تعرض بعض الأفراد الذين كانوا يعيشون على هامش الحياة الاجتماعية، وفي لحظة ما قد أصبحوا في عداد الأثرياء أو من متخذي القرار، عندما استعملوا أساليب الحيلة والخديعة مع الآخرين، وكأن بهذه البرامج توحي للمشاهدين:

أن النجاح في الحياة يمر عبر هذه الأساليب؛ مما يعني للكثير من أفراد - ولا سيما الشباب منهم الذين يواصلون الدراسة- إلى هجرها لعدم جدواها[١٣].

أن كل ما ذكرناه يدل دلالة قاطعة على أن برامج الفضائيات العربية غدت مُزَيِّفة لوعي الأفراد، والدليل على ذلك أنها أخذت تتناول خطاب ينسجم مع أيديولوجية المرسل، وتغييب واضح للخطاب النقدي، والشواهد الواقعية تشير صراحة أن الأفراد الذين اكتسبوا أنماطًا من السلوك غير المقبولة اجتماعيًّا إنما اكتسبت نتيجة المشاهدة للخطاب المزيف.

أساليب تزييف الوعي الاجتماعي في الفضائيات العربية

إن المتتبع لمضمون البرامج الواردة في الفضائيات العربية يجد أنها تنطوي على تضليل، أو تزييف لوعي الأفراد، وهناك أساليب متعددة أُتبعت في عملية التزييف، وهنا نشير إلى أبرز هذه الأساليب:

١- إن الخطاب التلفزيوني وجد في الجسد الأنثوي أسلوبًا فعالًا في جذب انتباه الأفراد إلى رسائله الاتصالية؛ لما له من أهمية في استثارة الحاجات غير المشبعة، ولا سيما الحاجة الجنسية.

إن مما يجب الإشارة إليه -في هذا الصدد- أن جسد المرأة يظل على الدوام رسالة اتصالية ينطوي على السحر والفتنة والجاذبية؛ لذا غدا أسلوبًا فعالًا في

الإعلانات والبرامج التلفزيونية الأخرى، التي تستهدف جذب الانتباه إلى الرسائل التي يراد إيصالها إلى الجمهور، وفي الوقت نفسه إحداث الأثر النفسي المطلوب، ألا وهو تشكيل السلوك بطريقة تتلاءم مع توجهات المرسل في هذا الصدد. وليس من الغريب أن نجد الشركات الإعلانية إلى جانب المؤسسات الاجتماعية التي تروم إرسال رسالة اتصالية إلى الجمهور، تعمد أولًا إلى التركيز في برامجها على جسد المرأة؛ ذلك الجسد الذي وجدت فيه عاملًا ييسر عملية التعرض إلى الرسالة الاتصالية، ولا يعمد في حقيقة الأمر إلى التشويش على تلك الرسالة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن جسد المرأة يعد أحد الأساليب الفعالة في عملية تزييف وعي الأفراد إزاء بعض القضايا الاجتماعية.

٢- إن التلفزيون أخذ يشرط وعي الأفراد، وهذا الإشراط أفضى إلى تحديد الخيارات، أو البدائل لدى الفرد المشاهد؛ بمعنى آخر: أن التلفزيون لم يفسح مجالًا للفرد أن يحدد بنفسه خياراته المطلوبة، بل إن المشرطين Conditioners هم الذين يحددون له الخيارات بالرغم من المزاعم التي يطلقها هؤلاء (المشرطون)، مع أن الفرد حُرٌّ في اختيار البدائل التي تقرر مصيره، بيد أن هذه المزاعم هي في واقع الأمر محض وهم، وليس هناك ما يسندها؛ لأن وسائل الاتصال الجمعية، ومنها التلفزيون على سبيل المثال، تغرق الفرد المشاهد في اليوم الواحد بعديد من الصور والبرامج والرسائل التي أريد منها إدماجه في عمليات الإشراط الحادثة في المجتمع من جانب، واستثارة بعض حاجاته المؤجلة من جانب آخر، وكأن بالتلفزيون هنا يدفع بالفرد إلى إشباع تلك الحاجات المؤجلة بشكل آني، وذلك هو ديدن المجتمع الاستهلاكي[١٤]، وإذن "يستحيل تقنيًّا أن يكون الإنسان سيد نفسه، وأن يختار أسلوب حياته"[١٥]. على حد تعبير ماركوز.

إذا نحن عدنا إلى عبارة ماركوز نجد أنها تنطوي على جملة أمور منها:

أ- أن تقدم التقانة، ولا سيما في ميدان الاتصال قد سلبت الفرد حريته في انتقاء أشيائه؛ إذ أخذ ينتقي أشياءه طبقًا لأذواق الغير (المشرطون)؛ فالمشرطون هم الذين يريدون منه أن يشتري السلعة المعنية، وبالمواصفات التي حددت لها، وبذلك فهو لا يمتلك خيارًا سوى شرائها.

ب-ولما كان الفرد لا يمتلك الحرية في انتقاء أشيائه، فهو إذن ليس سيدًا على نفسه، ولو كان سيدًا على نفسه -كما يزعم هؤلاء- لانتقى أشياءه بنفسه بموجب حاجاته غير المشبعة من السلع.

جـ- ولأنه لا ينتقي أشياءه بنفسه فهو إذن لا يحدد لنفسه الأسلوب المناسب لحياته، ووفقًا لهذا المنطق تغدو مزاعم هؤلاء -المشرطون- أن الفرد حر في تقرير خياراته محض وهم[١٦].

٣- أن عمليات الإشراط الحادثة بفعل التلفزيون، تستهدف فيما تستهدف، خدمة المتلاعبين بالعقول (Mind Managers)، أو على نحو أصح خدمة المشرطين، أي: خدمة المرسل فحسب، وهو يعني جملة أن الخطاب التلفزيوني يكرس أيديولوجية المهيمن، ويدعو إلى تقبل خطابه.

٤- ومما يترتب على عمليات الإشراط هذه أن الخطاب التلفزيوني أخذ يعتمد على وجهة نظر واحدة، وأهمل وجهات النظر الأخرى، أي: أنه يعتمد على وجهة النظر التي تتفق مع أيديولوجية المهيمن حصرًا، وتغييب وجهات النظر المخالفة.

٥- ولعل الاندماج في المجتمع هو جل ما تستهدفه عمليات الإشراط[١٧]. إذا نحن عدنا إلى عمليات الإشراط الحادثة بفعل الخطاب التلفزيوني في كثير من الأقطار العربية فإن الهدف منه هو جعل الفرد منجذبًا إلى مجتمعه، راضيًا عن نمط الحياة فيه، ومتقبلًا للأيديولوجية السائدة، ولعل ذلك يعود إلى أن النظم السياسية تحاول أن تحافظ على ما استقر من أوضاع

ونظم، أو ما كان مطلوبًا له أن يستقر، وليس المحافظة على تماسك المجتمع، حتى في حال تعرض الأفراد إلى الشعور بالضياع والاغتراب، وإذن فإن استقرار الأوضاع -ولا سيما السياسية منها- هو جل ما تستهدفه إليه عمليات الإشراط.

٦- لقد اشتملت الرسائل الاتصالية الصادرة من التلفزيون على تناقض في تناول الأنساق القيمية Value Systems؛ فتارة تدعو إلى تبني نموذج الإنسان المتدين، وتارة أخرى تغمر رسائلها المشاهد بفيض من نماذج الإنسان المنحرف، ونموذج الإنسان المغترب، ونموذج الإنسان الاستعراضي، ونموذج الإنسان المقهور، ونموذج إنسان السوق، وكل تلك النماذج من البشر التي تُطرَح عبر تلك الرسائل، قد تؤدي إلى عدم تثبيت النسق القيمي المطلوب؛ ذلك النسق الذي يشيع بين الأفراد الوحدة والتماسك والتوجه نحو الهدف المشترك.

٦- ومن الأساليب التي يلجأ إليها الخطاب التلفزيوني في تزييف الوعي إقناع الأفراد بالرضا عن أحوالهم الاقتصادية السيئة، وذلك بتصوير قضية الغنى والفقر أنها حالة طبيعية، ولا يعني أنها ناشئة عن قصور السياسات الحكومية، وبذلك فإن الخطاب التلفزيوني يصور قضية العسر الاقتصادي الذي تعاني منه الأغلبية من المجتمع أنها مرتبطة بحجم الموارد، وليس لها أية علاقة بعدالة التوزيع، وكأن الخطاب التلفزيوني يحاول أن يبرئ السياسات الحكومية من قضية التصرف اللاعقلاني بالموارد، فضلًا عن إضفاء فلسفة جبرية في عملية توزيع المنافع الاقتصادية، وبذلك أصبح الخطاب التلفزيوني مضللًا، أو مزيفًا لوعي الأفراد إزاء مشكلات اليسر والعسر.

نقول: إن الخطاب التلفزيوني أخذ يصور قضية الغنى والفقر على أنها خارجة عن إرادة السياسات الحكومية، ملقيًا بتبعاتها على الظروف الدولية،

وعلى أعداء الإنسانية.

٧- إن الدين بوصفه أسلوبًا فاعلًا في الإقناع، قد وُظف في عمليات التزييف، أو التضليل التي أخذ يركز عليها الخطاب التلفزيوني، وذلك بإقناع الأفراد بالرضا عن ظروفهم الحياتية الراهنة، وتصوير عيش الكفاف والفقر على أنه امتحان سماوي واختبار صبر الصابرين، وخير شاهد على ما نقول (خطبة الجمعة) التي تُنقَل وقائعها عبر التلفزيون؛ فالمتتبع لهذه الخطبة يجد أنها خطاب ينطوي على ألفاظ غاية في البيان والتنميق اللفظي، ولكنه لا يبلغ حدود المراد، أي: أنه لا يتناول مشكلات الإنسان وهو يعيش الأزمة السياسية، أو الاقتصادية، أو الاضطراب الاجتماعي، فضلًا عن أن هذا الخطاب يفتقر إلى البرامج اللازمة لمعالجة مشكلات المجتمع، كما أنه خطاب غير عقلاني؛ إذ يعتمد كثيرًا على الغيب مما يسهم -ولو بطريقة غير مقصودة- في تعليم الإنسان (العجز).

٨- لقد أخذ الخطاب التلفزيوني يصور الواقع السياسي الراهن على أنه يوتوبيا أو مدينة فاضلة، وذلك بتكرار خطاب ينطوي على حرية الفرد في التعبير عن آرائه ومعتقداته، وله الحق في المشاركة في صنع القرار السياسي، إلى جانب حقه في مساءلة النظام الاجتماعي في حال ارتكابه للأخطاء، وبطبيعة الحال فإن وصف الخطاب التلفزيوني للواقع السياسي بطريقة وهمية أو مضللة سيفضي إلى سخرية الأفراد وتهكمهم، مما يعني أن هؤلاء سيطلقون المزيد من الصور النمطية السلبية على النظام الاجتماعي عند تعرضهم لمثل هذا الخطاب، فضلًا عن العزوف عن سماعه.

٩- إذا نحن أجرينا مسحًا للبرامج التلفزيونية الموجهة نحو النساء نجد أنها تولي اهتمامًا بالنخبة منهن، أي: بأخبار تلك النساء البارزات، أو اللواتي ذاعت شهرتهن في ميادين الفن والأدب والعلوم[١٨]؛ لذا أخذ الخطاب

التلفزيوني يروج لهن إعلانات في محاولة لإشباع حاجاتهن من السلع الاستهلاكية، فضلًا عن إشباع الحاجة إلى الاستعراض في المجتمع.

أما الغالبية العظمى منهن فلا تحظى إلا بحصة قليلة من هذه البرامج؛ تلك الحصة التي لا تتناسب مع نسبتهن في المجتمع، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الخطاب التلفزيوني يكرس مصالح الفئة المسيطرة حصرًا، ويعبر عن أيديولوجيتها، والمتتبع لهذه البرامج يجد أنها لا تعبر عن حاجات المرأة العربية من السلع والمواد الاستهلاكية، ولعل ذلك يعود إلى أن هذه البرامج تستند إلى مرجعية أجنبية، بمعنى أنها تحاكي، أو تقلد البرامج الغربية على وجه التحديد، في طريقة إنتاج الخطاب التلفزيوني الموجه للنخبة من النساء، وحقيقة الأمر فإن إشاعة خطاب يعبر عن مشكلات النخبة من النساء، ويتجاهل مشكلات الأغلبية منهن، إنما يراد منه النظر إلى النساء على أنهن فئة واحدة لا ينقسمن إلى فئات متعددة، وهو تزييف لحقيقة الأمر، ووفقًا لهذا المنطق غدا الخطاب التلفزيوني وسيلة للتعبير عن مشكلاتهن في الحياة، سواء في ميدان العمل، أو في ميدان الحياة الزوجية، أو في ميدان الشهرة، أو في ميدان التفاعل الاجتماعي.

١٠- ولعل الأمر نفسه ينطبق على الأطفال؛ إذ لا يحظى هؤلاء -ولا سيما أولئك الذين ينتمون إلى المستوى الاجتماعي الاقتصادي المتدني- إلا بنصيب قليل من البرامج التلفزيونية التي تتناول مشكلاتهم النفسية والاجتماعية، وكذلك أوضاعهم الاقتصادية، في حين يحظى أقرانهم من ذوي المستوى الاجتماعي الاقتصادي الراقي بنصيب وافر منه؛ ولعل ذلك يعود إلى الرقابة على مضمون الخطاب التلفزيوني؛ إذ إن تناول موضوعات تتعلق بالأطفال من ذوي المستوي الاجتماعي الاقتصادي الراقي بنصيب وافر منه؛ ولعل ذلك يعود إلى الرقابة على مضمون الخطاب التلفزيوني؛ إذ إن تناول موضوعات تتعلق بالأطفال من ذوي المستوى الاجتماعي الاقتصادي المتدني،

يعني جملة تناول موضوعات تخص المسألة الاجتماعية التي تحرص النظم السياسية على تجنبها؛ لارتباطها بعدالة التوزيع وكفاءتها في معالجة الأوضاع الاقتصادية المضطربة.

١١- وقد تفضي عمليات التهويل والمبالغة في مضمون الصورة التلفزيونية إلى استثارة السخط والاستياء السياسي، وربما يفضي ذلك إلى استثارة الصنف في وقت لاحق بين الفئات الاجتماعية التي تعاني من الغبن والحرمان، ولا سيما إذا كان المناخ الاجتماعي مهيئًا لاستثارة العنف.

وهنا نجد في المواجهات المسلحة التي حدثت بين أنصار تيار الصدر في العراق والقوات متعددة الجنسيات، خير شاهد على عمليات التهويل والمبالغة في الصورة التلفزيونية.

إن المتتبع لهذه المواجهات يجد أنها تركزت في بداية الأمر في أحد أحياء بغداد المكتظة بالسكان، وهي مدينة الثورة التي أطلق عليها فيما بعد بمدينة الصدر، ثم سرعان ما انتشرت هذه المواجهات إلى مناطق أخرى من بغداد وإلى مدن الجنوب. وأنها أصبحت شديدة الوطأة على الطرفين، بعد إرسال صور من عدد من الفضائيات العربية، تفيد أن أنصار تيار الصدر، يشكلون نسبة كبيرة من المجتمع العراقي أو أنهم يعدون بالملايين، بيد أن هذه المواجهات أخذت بالتصاعد إثر بث هذه الصور؛ وكأن هذه الصور المرسلة كانت بمثابة العامل المعجل لانتشارها إلى رقعة أوسع؛ ومما زاد من شدة المواجهات المسلحة بين الطرفين، أن الخطاب الوارد في هذه الصور أخذ يتناول الخلفية الاجتماعية لأنصار هذا التيار؛ وذلك بالإشارة إلى أن الغالبية منهم من الفقراء الذين يعيشون في أحياء سكنية مدقعة تعاني من البؤس والحرمان من الخدمات الرئيسة، وأنهم قارعوا النظام السابق وتحملوا أجراء ذلك الظلم والاضطهاد.

والحقيقة التي لا بُدَّ من التركيز عليها هنا، أن الوصف الذي ورد في معظم الفضائيات العربية، كان وصفًا واقعيًّا للخلفية الاجتماعية والاقتصادية لأنصار تيار الصدر، ولكن تكثيف الصور والمبالغة في إرسالها، أفضى إلى استثارة سخط أنصار التيار الصدري واستيائهم، وهذا أدى بدوره إلى استثارة العنف الذي عمَّ أرجاء واسعة من البلاد.

ولقد مكنت حالة الاضطراب التي عمت البلاد، بعض الجماعات الإرهابية من الاشتراك في عمليات مسلحة، تتمثل بإشعال الحرائق في محطات الوقود، أو وضع العبوات الناسفة في وسط التجمعات الجماهيرية، أو ضرب المناطق الآهلة بالسكان بالقذائف، أو تفجير السيارات، أو وضع المتفجرات في بعض الطرقات الرئيسة، ولعل ذلك أفضى إلى إشاعة الخوف بين صفوف الأفراد، وتفشي الإرباك، وضعف التنظيم في مؤسسات المجتمع، فضلًا عن توقف النشاط المهني لبعض الأفراد.

وغاية ما يمكن قوله هنا: إن الصورة الوافدة من الفضاء قد تستثير العنف بين فئات اجتماعية معينة، شريطة أن يكون مضمونها باعثًا على التذمر، فضلًا عن توفر بعض المحرضات في الميدان.

تصوِّر الفضائيات العربية المجتمع العراقي في الظروف الراهنة، على أنه ساحة حرب فحسب، بمعنى: أن الحياة الاجتماعية فيه غدت مستحيلة أو تكاد، إلى جانب تغييب واضح لدور السلطات في ضبط الأمن، ومطاردة العناصر الإرهابية، وتسيير الحياة اليومية للبلاد، ولعل الأخطر في هذه الصور أنها أوحت للجمهور العربي، بصعوبة العيش في المجتمع، وأن النشاط الاقتصادي فيه معطل أو شبه معطل، كما أوحت هذه الصور للجمهور العربي المتابع لتطورات الأحداث في المجتمع العراقي أن القنابل تمطر الناس ليل نهار، وأن الجثث تنتشر في الطرقات وفي الأزقة، مما أفضى الحال بالناس إلى

التزام المنازل، بيد أن الحقيقة على النقيض من ذلك؛ إذ إن الأفراد في عموم المجتمع يزاولون نشاطاتهم المختلفة، سواء كانت سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو ثقافية، أو تربوية، غير آبهين بما يحدث من تفجير هنا أو هناك، باستثناء المناطق المحسوبة على النظام السابق التي فقدت الكثير من النفوذ السياسي، إلى جانب فقدان الامتيازات الاقتصادية؛ إذ تشهد بين الآونة والأخرى مواجهات مسلحة، أما المناطق العراقية الأخرى، فهي تشهد استقرارًا أمنيًّا ملحوظًا. وما يهمنا هنا أن الفضائيات العربية أسهمت في تشكيل صورة نمطية سلبية عن المجتمع العراقي، كونه غير آمن، ولعل الأحاديث السيئة التي أخذ يتناقلها الجمهور العربي عن الأحداث الجارية في المجتمع العراقي هي نتاج التضليل الحادث في هذه الفضائيات.

ومن الأساليب المزيفة لوعي الأفراد في الفضائيات العربية، الصمت حيال انتهاكات حقوق الإنسان الحادثة في كثير من الأقطار العربية، والمتتبع للبرامج السائدة في الفضائيات العربية يجد أن الصمت الذي التزمته حيال هذه الانتهاكات، لم يكن من قبيل صعوبة الحصول على تفاصيل الأمور، وإنما كان صمتًا مقصودًا، يستهدف بالدرجة الأساس السكوت عن تصرفات السلطان، حيال هذه الانتهاكات التي بلغت درجة لا يمكن السكوت عنها، كما حصل أيام النظام السابق في العراق؛ إذ دفن معارضيه وهم أحياء في مقابر جماعية، واستعمل مع آخرين أساليب التنكيل، والإهانة، والتحقير، والسحل، والتقييد بالأصفاد، والحرق التي تعود إلى القرون الوسطى، ولم تحرك الفضائيات العربية ساكنًا، وإنما لجأ بعضها إلى تصوير رئيس النظام بوصفه بطلًا قوميًّا وقائدًا مهيبًا. بيد أن واقع الحال كشف بما لا يدع مجالًا للشك، حالة التضليل الحاصل في هذه الفضائيات، عندما سقط تمثاله وسط حشود من الجماهير المهللة في بغداد؛ تلك الحشود التي كشفت بين ما كشفت مشاعر الفرح والارتياح جراء سقوط نظامه.

إذا نحن بحثنا عن الأسباب التي جعلت هذه الفضائيات تبرز إيجابيات النظام، وتخفي عن عمد سلبياته نجد أن أولى هذه الأسباب يكمن في أن النظام أغدق على بعض الفضائيات العربية عطايا سخية؛ لذا غدت عملية التغاضي عن انتهاكاته إزاء حقوق الإنسان مسألة نفعية، وليس أدل من دليل على ذلك الفضائح التي كشف عنها برنامج النفط مقابل الغذاء؛ إذ كشفت الوثائق الموجودة في وزارة النفط العراقية حصول شخصيات إعلامية وأخرى فنية على أموال من هذا البرنامج مقابل الإسهام الفعال في التعبئة الإعلامية للنظام.

ومن الأسباب التي جعلت الفضائيات العربية تخفي سلبيات النظام أن معظم الفضائيات انطلقت من مقولة: إن الفضائيات هي مشروعات تجارية؛ ولأنها كذلك، فهي تخضع للمبدأ النفعي، وما تبثه عبر قنواتها إنما يخضع لهذا المبدأ، وهكذا أخذت تروج فكرة النفعية في عملية البث؛ بهدف تمويل القنوات واستمرارها؛ لكي يكون هذا المبدأ مسوغًا لها، عندما تتسرب بعض الوثائق إلى الرأي العام، التي تدينها حيال صمتها، وعلى ذلك نقول: إن معظم الفضائيات العربية عمدت إلى إخفاء سلبيات النظام، استنادًا إلى المبدأ النفعي وحسب.

تشير الوقائع أن الفضائيات العربية أخذت تسهم مع غيرها من قنوات الاتصال المتقدمة في إشاعة ثقافة الموت؛ وذلك بإرسال صور تتناول شخصيات ملثمة تقطع رءوس الأفراد الذين لم يلتزموا بالأوامر، أو النواهي الصادرة عنها.

والحقيقة التي لا بد من التركيز عليها هنا أن إشاعة ثقافة تشتمل على التدمير والتخريب، وإنهاء حياة الآخر عند الاختلاف معه برأي أو بموقف أفضى إلى تشجيع بعض الأفراد الذين يتمتعون بحكم خلقي متدنٍّ إلى تقليد،

أو نمذجة هذا السلوك، كما هو حاصل في العراق، وهناك محرضات ميدانية دفعت بهؤلاء الأفراد إلى تقليد غيرهم في عمليات الخطف أو قطع الرءوس، ولعل من أبرز هذه المحرضات، وجود اتجاهات سياسية معادية للوضع السياسي الجديد.

ولقد أثبتت الوقائع الميدانية أن التغيير الحاصل في الحياة السياسية أفضى بهؤلاء الأفراد إلى فقدان نفوذهم السياسي، مما ترتب على ذلك فقدان الجاه الاجتماعي، وهذا بدوره أفضى إلى فقدان الامتيازات الاقتصادية، وبالمحصلة النهائية أصبح هؤلاء من المهمشين في الحياة السياسية الجديدة.

وما يهمنا هنا أن الفضائيات العربية غدت وسيلة اتصال مهمة في بلوغ أهداف العناصر الإرهابية المتمثلة بنشر ثقافة الموت، ولولا إصرار هذه الفضائيات على تحقيق السبق الصحفي والشهرة لما انتشرت هذه الثقافة، ولكن السبق الصحفي الذي تحاول الفضائيات بتحقيقه كانت له عواقب واضحة على بعضها؛ إذ تردد في الأوساط الإعلامية: أن بعض القنوات الفضائية تلقت تهديدات من جماعات إرهابية، تفيد بضرورة حجب البث لبعض المواد الإعلامية أو الفنية؛ بحجة أنها تسيء إلى توجهاتها الأيديولوجية، وحجب مسلسل (الطريق إلى كابل) عن البث، خير شاهد على الامتثال للأوامر الصادرة عن هذه الجماعات.

يلاحظ على بعض الفضائيات العربية أثناء تغطيتها للأحداث السياسية أنها تعمد إلى استثارة الكراهية بين أفراد المجتمع الواحد، ولا أدل من دليل على ذلك، سوى التغطية الإعلامية للأحداث السياسية في العراق؛ إذ حاولت بعض الفضائيات العربية، ومنها على وجه التحديد قناة الجزيرة الفضائية أن تستثير الكراهية بين طائفتي المسلمين في العراق؛ وذلك بزعم مراسلها أثناء تغطيته للأحداث الجارية أن بعض المدن العراقية انتفضت بوجه القوات

الأجنبية، ثم أخذ بعد ذلك بتسمية هذه المدن، في إشارة واضحة إلى المدن السنية.

ويضيف هذا المراسل: إن المدن الأخرى لم تصدر عنها إشارة دالة على الانتفاضة، وهنا نذكر أن هذا المراسل لم يعمد إلى تسمية هذه المدن، وكانت إشارته واضحة الدلالة، فالمقصود بهذه المدن الشيعية على وجه التحديد، ولعل الأخطر من ذلك أن تقريره اشتمل على إشارات لفظية تفيد أن سكان هذه المدن هم حلفاء للولايات المتحدة؛ ولأنهم كذلك، فقد التزموا حالة الهدوء، على أن حالة الإحباط التي يعاني منها المجتمع العراقي في الظروف الراهنة؛ نتيجة تأخر إعمار البنى التحتية، مهيئة لاستثارة العنف الطائفي شريطة توفر بعض المحرضات الميدانية، ولا سيما المحرضات الصادرة عن الطرفين.

الآثار النفسية المترتبة على تزييف الوعي الاجتماعي

إن التزييف أو التضليل الذي عمدت الفضائيات إلى إشاعته في خطابها الموجه إلى الأفراد، سيترتب عليه آثارًا نفسية عدة، ولعل من أبرزها:

١- إن الخطاب الوارد في الفضائيات، وهو يرسل فيضًا من الصور والبرامج والمشاهد التي تكون في العادة غير حقيقية عن واقع الحال، أو هي تضليل للواقع الحياتي، سيعمد إلى تشكيل عالم يوتوبي، أو ما يسمى بالمدينة الفاضلة، تلك المدينة التي تتوافر فيها كل مستلزمات الحياة الحرَّة الكريمة، وبمقتضى ذلك سينعم الإنسان بالحرية، ويتحرر من الخوف، ويشبع حاجاته النفسية والاجتماعي، وستكون العاقبة، أن الإنسان في بلدان العالم الثلاث، ومنها المجتمع العربي، سيجد هوة واسعة بين البيئة التي يعيش فيها، وذلك العالم اليوتوبي الذي ما انفك يحلم به [١٩].

هذا العالم اليوتوبي الذي تحدد معالمه في برامج الفضائيات، سيشيع حالة

من الاغتراب لدى الفرد، بحيث يجد نفسه مبتعدًا عن مجتمعه وغير مشارك فيه، مما يشجعه على تكوين صور نمطية عنه، كونه مجتمع متخلف، ولا يمكن إصلاحه.

٢- ومما يترتب على عملية التضليل والتمويه الحادثة في الفضائيات، إضعاف الإنجاز الدراسي؛ وذلك يرجع أساسًا إلى أن الخطاب التلفزيوني أخذ يرسل رسائل متناقضة عن نجاح الفرد أو فشله في الحياة، فتارة يعزو النجاح إلى الجهد المبذول والكفاءة التي يتمتع بها الفرد، وتارة يعزو النجاح إلى أسلوب الحيلة والخديعة التي يمارسها مع الآخرين، ثم يعزز هذه الرسائل برسائل اتصالية أخرى تنطوي على بعض الأدلة، والشواهد الواقعية.

وحقيقة الأمر أن مشاهدة مثل هذه الرسائل والاستماع إليها سيفضي إلى العزوف عن المطالعة وتحصيل المعرفة، وبمرور الوقت سيفضي الحال إلى تشكيل عادات تنطوي على نبذ المطالعة، وإضعاف التوجه نحو الدراسة، مما يضعنا إزاء مشكلة في غاية الخطورة، ألا وهي الانصراف عن الإنجاز الدراسي.

٣- كما أن استمرار خطاب الفضائيات في ممارسة عمليات التمويه، والتضليل إلى تعليم الفرد أساليب حياة تنطوي على الخداع والحيلة أثناء عمليات التفاعل الاجتماعي.

وقد تفضي عمليات التمويه، أو التزييف الحادثة في الوعي الاجتماعي إلى تكوين عادات سلوكية لدى الأفراد؛ تلك العادات التي تنطوي على البحث عن الإثارة والفتنة في جسد المرأة، أو البحث عن الإثارة في الوسائل التي يرسلها الخطاب التلفزيوني مما يترتب على ذلك، أن الرسائل الاتصالية التي تنطوي على التوجيه والإرشاد والوعظ سيعزف الأفراد عن التعرض لها،

وعدم متابعتها، وفي حال استمرار العزوف عن التعرض لرسائل من هذا القبيل سيفضي إلى تكوين اتجاهات تنطوي على تفضيل المتعة والإغراء.

١- وربما تفضي عمليات التزييف في الوعي الاجتماعي إلى إشاعة ثقافة تتسم بالاستهلاك المفرط، وذلك من خلال التركيز على البرامج التلفزيونية التي يشيع فيها نمط استهلاكي إلى حد البذخ كالإعلانات على سبيل المثال.

٢- ولعل خطوة الخطاب التلفزيرني في تزييف وعي الأفراد يكمن في إشاعة حالة من الإعجاب والانبهار ببعض الثقافات، وقد تفضي حالة الإعجاب والانبهار إلى مقارنة – أي: الأفراد – أوضاعهم الحالية في مجتمعهم، مع أوضاع أولئك الذين يعيشون في تلك الثقافات، وقد تؤدي هذه المقارنة التي تبني وجهة نظر مفادها أن عالم تلك الثقافة هو العالم الذي يتمتع فيه الإنسان بالحرية، وهو عالم يضمن له حقوقه، فضلًا عن كونه عالم يتحرر فيه الإنسان من الخوف[٢٠].

بعبارة أخرى فإن الأفراد سيجدون أنفسهم بعد المقارنة من الساخطين على الثقافة السائدة، وقد يترتب على ذلك، إشاعة حالة من التمني للعيش في تلك الثقافات، وربما ينتهي الأمر ببعضهم إلى الهجرة إليها، والاندماج في عالمها.

٣- كذلك فإن عمليات التمويه والتضليل الحادثة عبر الفضائيات العربية ستنمي لدى الأفراد ظاهرة اللامبالاة السياسية؛ تلك الظاهرة التي تتمثل بالعزوف عن المشاركة في النشاطات السياسية الحادثة في المجتمع كالعزوف عن المشاركة في الانتخابات، والعزوف عن الانضمام إلى الأحزاب السياسية، ومنظمات حقوق الإنسان، والعزوف عن مطالعة الصحف اليومية، والعزوف عن مشاهدة البرامج السياسية في الفضائيات؛ وذلك بإرسال صور تفيد أن المشاركة في هذه النشاطات لن

يغير من الأمر شيئًا، ولن يؤدي إلى نتيجة محددة؛ ذلك أن النتائج المترتبة على المشاركة في هذه النشاطات مقررة مسبقًا، وأن إسهام الأفراد فيها لن يغير منها شيئًا يذكر.

وكأن الصور المرسلة عبر هذه الفضائيات تريد أن تبلغ الجمهور برسالة مفادها: أن القوى التي تتحكم بالقرار، هي التي ستحدد مصيرهم، وما عليهم سوى الاستسلام للمصير الذي أُعد لهم.

٤- ومن الآثار النفسية المترتبة على نشر ثقافة الموت أن الآخر (الغربي) كوَّن عن الإسلام صورًا نمطية تتسم بالسلبية، وهي من قبيل أن الإسلام دين حرب، أو أنه دين كثير الشر[٢١]، ولم يكتفِ الآخر بهذه الصورة النمطية، وإنما أخذ يصف النبي الكريم بعدد من الصور النمطية السلبية منها أنه شخص متطرف أو إرهابي وسارق وأنه من قُطَّاع الطرق[٢٢].

أما المسلمون الذين يعيشون في البلدان الغربية، وفي الولايات المتحدة، فقد وُصفوا بالطابور الخامس[٢٣].

وواقع الأمر، أن الصورة النمطية السلبية التي وصف بها الإسلام لم تكن وليدة الظروف الراهنة، وإنما تعود إلى حقبة ما قبل انطلاق الفضائيات العربية بيد أن الفضائيات العربية زادت من سلبية الصورة النمطية للإسلام، وكذلك زادت من نشرها بين الفئات الواسعة للآخر.

والسؤال الذي نثيره هنا، ما الدور الذي أسهمت به الفضائيات العربية في زيادة سلبية الصورة النمطية للإسلام؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقودنا إلى الحديث عن مهنية هذا الفضائيات؛ فالمهنية اقتضت تغطية الوقائع الإخبارية مع تقديم تفاصيل وافية عنها؛ ولعل

من بين الوقائع الإخبارية التي نالت نصيبًا وافرًا من التغطية؛ الرسائل الصادرة عن العناصر الإرهابية التي تتوعد فيها بضرب المصالح الغربية، وقتل المواطنين الذين يحملون جنسيات غربية، وهناك مسألة أخرى زادت من سلبية الصورة النمطية للإسلام في الأوساط الغربية، تلك المسألة المتمثلة بإرسال الفضائيات العربية فيضًا من الصور واللقطات للعناصر الإرهابية وهي ترتدي الزي الإسلامي، وملتحية بلحى كثة، وتحمل البنادق على أكتافها، وترتسم على وجوهها أمارات الغيظ والغضب في إشارة واضحة إلى أن الإرهاب يرتبط بالإسلام، وأن البيئة الإسلامية موطن الإرهاب.

وقد يُفسَر ذلك من جانب الآخر الذي يجهل أصول الدين الإسلامي، أن الإسلام دين يحض على الحرب ويدعو إلى الشر، وينبذ السلام، ولا يقبل بالحوار العقلاني، بوصفه أسلوبًا لحل الخلاف، وهو في النهاية دين لا يُعلِّم أفراده حق الاختلاف وحق التسامح، وإنما يُعلِّمهم الأساليب التي يتم بموجبها إقصاء الآخر عند الاختلاف معه، ولعل الإرهاب يعد أحد أساليب الإقصاء.

الهوامش

(١) أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٤)، ص٣٠٧.

(٢) سيدني جورارد، وتيد لندزمن. الشخصية السليمة، ترجمة حمد دلي الكربولي، وموفق الحمداني. (بغداد: مطبعة التعليم العالي، ١٩٨٨)، ص٥٣.

(3) D.G. myers . psychology, 1st ed. (New York: worth publisher. Inc 1986). p.189.

(٤) جورارد ولندزمن، الشخصية السليمة، ص٥٤.

(٥) لندا دافيدوف، مدخل علم النفس، ترجمة سيد الطواب وآخرون، ط٢. (الرياض: دار المريخ للنشر، ١٩٨٣)، ص٢٩١.

(٦) فاخر عاقل. معجم العلوم النفسية. (بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٨) ص٨٥.

(٧) المصدر نفسه، ص٨٦.

(٨) المصدر نفسه، ص٨٦.

(٩) عبد الله بو جلال، الإعلام وقضايا الوعي الاجتماعي في الوطن العربي، المستقبل العربي، السنة ١٤، العدد ١٤٧ (آيار – مايو، ١٩٩١)، ص٤٢.

(١٠) المصدر نفسه، ص٤٢.

(١١) عبد الباسط عبد المعطي، الإعلام وتزييف الوعي. (القاهر: دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٩)، ص١٥.

(١٢) حسن صعب، وسائل الإعلام والعطاء العلمي للإنسان العربي، بحث، ومناقشات الندوة الفكرية التي نظَّمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع مؤسسة عبد الحميد شومان حول تهيئة الإنسان العربي للعطاء العلمي، ط١، (بيروت: المركز، ١٩٨٥)، ص٣٧٨.

(١٣) محمود شمال حسن، قلق المستقبل لدى الشباب المتخرجين من الجامعات، المستقبل العربي، العدد ٢٤٩، السنة ٢٢ (تشرين الثاني – نوفمبر، ١٩٩٩)، ص٧٧.

(١٤) محمود شمال حسن، الحرب النفسية الموجهة إلى المجتمع العربي، قراءة جديدة، (بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، سلسلة آفاق، ٢٠٠١)، ص٤٢-٤٣.

(١٥) هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، ط٣ (بيروت: منشورات دار الآداب، ١٩٧٣)، ص١٩٠.

(١٦) حسن، الحرب النفسية الموجهة إلى المجتمع العربي: قراءة جديدة، ص٤٣-٤٤.

(١٧) المصدر نفسه، ص٤٤.

(١٨) راسم محمد الجمال، الاتصال والإعلام في الوطن العربي، ط١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية: ١٩٩١)، ص١٥٧.

(١٩) محمود شمال حسن، نحن والبث الفضائي: دراسة الآثار النفسية والاجتماعية المحتملة للبث الوافد من الفضاء في المجتمع العربي، دراسات اجتماعية، السنة ١، العدد ٢، (حزيران - يونيو، ١٩٩٩)، ٩٦-٩٧.

(٢٠) محمود شمال حسن، بث برامجي أم تشكيل نسق قيمي: دراسة الأنساق القيمية المترتبة على البث الفضائي في المجتمع العربي، شئون عربية، العدد ٩٧ (آذار - مارس، ١٩٩٩)، ص٥١ ، محمود شمال حسن، سيكولوجية الخطاب في برامج البث الوافد من الفضاء، الحكمة السنة ٢، العدد ٩ (آيار- مايو، ١٩٩٩)، ص٩٨-٩٩.

(٢١) نبيل دجاني، أجهزة الإعلام الغربية وموضوع الإرهاب في: العرب والإعلام الفضائي، ط١. (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤)، ص٨٠.

(٢٢) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٨٠.